الفصل الثاني
القضية في إطارها العربي

١- العراق وفلسطين
بدائل أم هموم متوازنة

العلاقة بين العراق وفلسطين لا تزال تتخذ أشكالا مبتكرة. وقد يظن البعض من ظاهر العنوان أنني أقصد تحليل علاقة بغداد بالقضية الفلسطينية أومدى ما أسهمت به في سير القضية سلبا أوإيجابا ، حقيقة أم مجازا ، واقعا أم افتراضا ، فذلك أمر لا أظن أن وقته قد حان، ولكنني أقصد أشكال الهموم التي تلقيها القضيتان على الكاهل العربي الهزيل .

أما الشكل الأول والأحداث فهوذلك الذي تلوح به الولايات المتحدة. فواشنطن تعلم أن الشعبين العراقي والفلسطيني يعانيان وأن واشنطن نفسها هي السبب الرئيسي في معاناتهما مع اختلاف الأسباب. فمعاناة العراق راجعة جزئيا إلى ضرورة أن يبذل العراق نفسه جهدا لسد الذرائع من أساسها والسعي إلى مصالحة أهل القتيل (الكويت) وألا يترك الأمر في يد ولي الدم (الولايات المتحدة) التي نصبت نفسها هكذا منذ استعان العالم العربي بها لاستخلاص الكويت من فم العراق واستخراجها من معدته، صحيح أن واشنطن تمارس سياسة الإذلال ضد بغداد لأسباب خاصة جدا يعلم المراقبون بعضها ويخفي أمرها على المتابعين ولكنها على كل حال لا تتصل بسبب إلى أمن الكويت أوالخليج.

وأما معاناة فلسطين فراجعة إلى وجود الاحتلال الإسرائيلي ووحشية سياساته ورغبة حكومة إسرائيل في إغلاق الملف الفلسطيني دون أن يحتوي سوى على أسماء الشهداء وصرخات الجرحى الذين تغتالهم إسرائيل علنا وتمثل بجثثهم على رؤوس الأشهاد. ولكن واشنطن تساند هذه السياسة وتعينها على المضي والاستمرار وتقرر أن حياة الإسرائيليين هي الأولى بالرعاية حتى على جثث الفلسطينيين، فالإبادة في العراق وفلسطين همان ثقيلان على العالم العربي والإسلامي وكلاهما مأساة كاملة للأمتين ولإسرائيل والولايات المتحدة يد في هذه المأساة، ومعنى ذلك أن العبث بآمال الشعبين الفلسطيني والعراقي والتلويح لهما باقتراب الفجر الكاذب أمر ينافي الأخلاق ويضاعف المهانة والحنق ، كما يضاعف الشعور بالعجز في العالم العربي؛ لأن العراق وفلسطين يجدان خلاصا لمشكلتهما في حلول جذرية واضحة تحدوها رغبة مخلصة من جانب واشنطن في أن تنظر إلى المشكلتين بعيدا عن التأثير الإسرائيلي الكاسح والذي دفع واشنطن إلى إغفال حقائق الموقف في المشكلتين.

ومؤدى ذلك أن محاولة واشنطن التلويح ببعض الأمل للشعب الفلسطيني مثلما فعلت عندما صرح أول وزير خارجية في نوفمبر ٢٠٠١ حول "الرؤية" الأمريكية للمنطقة وموقع الدولة الفلسطينية فيها ، قد يهدف إلى تهدئة الخواطر العربية والإسلامية بسبب البطش الإسرائيلي اليومي في فلسطين ليس حبا في العدل أوالعودة إلى الحق أوتجاوبا مع النداءات العربية والدولية الملحة ، وإنما هي رغبة واشنطن في تقديم مبرر تراه مناسبا لكي لا يمانع العالم العربي في قيامها بعمل عسكري كبير ضد العراق. ففي الوقت الذي تقدم فيه واشنطن جزرة في فلسطين تهوي بالعصى على العراق في مشهد متوازن تحت ستار جاهز وهوالمحافظة على التحالف العربي مع واشنطن ضد الإرهاب في محطة من محطاته العربية وفق التكيف الأمريكي مع العراق وعلى العكس ، قد تصور واشنطن تريثها في ضرب العراق على أنه تنازل من جانبها يستحق تأييد العرب لسياستها الموالية تماما لإسرائيل.

في هذا الفرض تلعب واشنطن بالعراق وفلسطين بطريقة تبادلية بنفس الطريقة التي أغرم بها الاستراتيجيون الأمريكيون في رسم نظريات ضبط العلاقات بين واشنطن من ناحية ، وإزاء كل من العراق وإيران من ناحية أخرى. ومن الواضح أن ما تسميه واشنطن تنازلا في المسألة العراقية قد لا يرضي دولا عربية أو إسرائيل، لأن الفريقين (هذه الدول وإسرائيل) ترى العراق عدوها الأول ، وأن استعداد الولايات المتحدة ضد العراق نصر لسياسات هذين الفريقين، وبالمقابل فإن أي " تساهل " تجاه الفلسطينيين وقيادتهم ينتقص من رضا إسرائيل التي تعتبر هذا " التساهل" طرحا من حسابها لصالح أعدائها .

أما في جانب العراق فإن إنصاف الشعب العراقي وإنقاذه لا يقل أهمية عن حماية الشعب الفلسطيني ، وفي ضعف الشعبين نصر لإسرائيل في الحساب الأخير.

الشكل الثاني لعلاقة العراق بفلسطين هو ذلك الذي طرحه الرئيس بوش الأب إبان غزو العراق للكويت ٩٠ ـ ١٩٩١ وهو الذي اتخذ صورة التتابع في العلاقة بينهما عندما وعد بوش بأنه فور تحرير الكويت ، سيقدم مبادرة للسلام بين العرب والإسرائيليين بما في ذلك الفلسطينيين ، أي أن التضامن العربي الأمريكي لدحر العراق سيؤدي إلى أن تكون عملية السلام مكافأة العرب في المعادلة ، وهو يعلم علم اليقين أين حصة إسرائيل في المعادلة كلها

سواء فِي مواجهة العراق أو فِي مواجهة بقية الأطراف العربية فِي الصِّرَاع العربي الإسرائيلي .

أما الشكل الثالث فهو ذَلِك الَّذِي تتبناه إسرائيل وهُوأن إضعاف العراق إلَى حَدّ أن يَكُون ـ كَمَا قال البارودي ـ "فلُّ رزية تقاسمها فِي الأهل باد وحاضر ..." أمر هام لإضعاف مجمل القوة العربية، ومِن ثُمَّ تعظيم قدرة إسرائيل فِي مواجهة الفلسطينيين حَتَّى لَو افترضنا فرضًا أن قوة العراق يُمْكِن أن تضاف إلَى ميزان القوة العربية الشاملة.

غَيْر أن الشكل الرابع لعلاقة العراق بفلسطين هو المنظور العراقي نفسه ، حَيْثُ يَبْدُو أن العراق تنظر إلَى القضية الفلسطينية بوصفها ساحة لسياساته ومتنفسًا لحركته مَا دَامَت لا تسبب لَهُ مخاطر فِي الوقت الَّذِي يضمن تسجيل نفسه ضمن المعسكر القومي التحرري ولَو بالخطب والتصريحات. وخلال الغزو العراقي للكويت اعتبر العراق التهام الكويت وجبة لازمة لِكَي يتمكن مِن استجماع قوتة لتحرير فلسطين ومنازلة إسرائيل ، وعِنْدَمَا اشْتَدَّ الضغط عَلَى العراق ربط بَيْنَ الانسحاب العراقي مِن الكويت والانسحاب الإسرائيلي مِن فلسطين .

وأخيرًا المنظور الكويتي لعلاقة العراق بفلسطين والَّذِي يقوم عَلَى أن حرية الكويت ـ فِي الحسابات العراقية ـ رهن بحرية فلسطين مِمَّا يَعْنِي ديمومة الاحتلال لِكُلٍّ مِن الكويت وفلسطين، وهُمَا، فلسطين والكويت ، هموم عربية متراكمة ترهق العالم العربي وتؤرقه .

ولا شَكَّ أن الكويت قَد نظرت إلَى العراق وفلسطين مَعًا نظرة عدائية عِنْدَمَا أيدت القيادة الفلسطينية غزو العراق ، مِمَّا كَانَ لَهُ أثره فِي الموقف العربي وتنامي فرص إسرائيل فِي مواجهة الجميع .

ولا شَكَّ أن تركيز التوتر صوب العراق يصرف الانتباه عَن بطش إسرائيل للفلسطينيين ، كَمَا أن التركيز عَلَى مأساة الفلسطينيين يخفف الاهتمام بمأساة شعب العراق.

وتبقى مأساة العراق وفلسطين عنوان الهوان العربي بصرف النظر عَن دور العراق فِي صناعة مأساته والإسهام ـ إلَى حَدّ مَا ـ فِي استمرارها .

٢ـ الضلالات الصهيونية وخطر السكوت عنها

كشف علاقات السلام والصِّرَاع بَيْنَ العرب وإسرائيل عَن حقائق لَمْ يعد ممكنًا الطعن فِي صحتها أو إخفاؤها ، مِثْلَمَا انكشفت إسرائيل وأوهامها بحجمها الحقيقي ، ومِن المهم فِي المرحلة القادمة أن نؤكد الحقائق وأن نبدد الأوهام والأباطيل والضلالات الَّتِي لا يزال البعض يعتقد أنَّهَا تنطلي عَلَى غيرهم بنفس السهولة الَّتِي انطلت فِي الماضي .

أما الحقائق الَّتِي انكشفت فأولها أن شعوب المنطقة جميعًا تريد السلام العادل الواضح المتوازن ولَنْ تقبل السلام الإسرائيلي القائم عَلَى عقد نفسية وأوهام ومفاهيم عنصرية ، وعَلَى تميز بني إسرائيل عَلَى غيرهم ، ولَكِن التطرف الإسرائيلي يراهن عَلَى مَا يعتقده نقاط الضعف العربية وحسابات اللحظة. ولَيْسَ صحيحًا أن العرب اضطروا إلَى السلام بَعْدَ أن أعيتهم وسائل المواجهة ، وإنَّمَا الصحيح أن اصطلاح السلام والتفاوض تاجرت بِهِ إسرائيل طويلاً وأدخلت فِي روع العالم أنَّهَا الدَّوْلَة الصغيرة الوليدة المتحضرة أحوج مِن غيرها للسلام دُونَ أن تفصح فِي تِلْكَ المرحلة عَن ملامح السلام الَّذِي تضمنه ، وتعلم إسرائيل قبل غيرها أن نجاحاتها جميعًا مرهونة بنسبة هائلة بمساندة اللوبي الصهيوني والولايات الْمُتَّحِدَة مساندة عمياء ، ولَيْسَت انتقادات زعماء الصهاينة الأخيرة فِي كتبهم ومواقفهم الَّتِي يهلل لَهَا بعض المثقفين العرب ـ لَيْسَت سِوَى صيحات تحذير لتصحيح المسار المفيد لاستمرار بقاء إسرائيل الَّذِي يجمع العرب الآن عَلَى قبولة ، لكنهم يعترضون عَلَى عقلية زعمائها وممارساتهم الهوجاء .

والغريب أنَّهُ رغم تغير المناخ الإقليمي والدولي لا يزال قادة إسرائيل يرددون نفس اللغة والمفاهيم وزاد نتنياهو عليهم فِي تكرارها بلا ملل وبشكل يستفز أعقل العقلاء .

الحقيقة الثانية هِيَ أن جوهر السلام عِنْدَ إسرائيل هُو خضوع العرب لمطالبها ومفاهيمها واحتجاجاتها ، والمحاجة مِن جانبهم فِي هَذِهِ المسلمات هى إرهاب ونكوص عَن روح السلام ، ويزداد جوهر السلام خصوصية عِنْدَمَا يتعلق بالفلسطينيين حَيْثُ تتصور إسرائيل أن عرفات لَيْسَ أكثر مِن كبير نظار تأتيه المساعدات الدَوْلية كُلَّمَا رضيت عَنْهُ إسرائيل ، وأن المبرر الوحيد لاستمرار وضعه فِي دائرة السيطرة الإسرائيلية هُو قيامه بمهمة أساسية تشكل أساس شرعية

السياسة القانونية فِي نظر إسرائيل وهِيَ تأمين إسرائيل مِن غضب الفلسطينيين مَهْمَا تمادت إسرائيل فِي جلدهم وسحق عظامهم وهدم منازلهم وخنقهم نفسيًا واقتصاديًا ، ولا نَظُنّ أن أي انسحاب إضافي أوتطوير فِي مركز السلطة الوطنية هُو مِن خيارات الحكومة الحالية. وحَتَّى لا نندهش مِن موقف واشنطن فِي عهد الرئيس كلينتون أونعلق عَلَى حكمه آمالاً زائفة ، يَكْفِي أن نذكر مَا سجله مَعَ آل جور فِي برنامجة الانتخابي حَيْثُ وعد بأن ينصف إسرائيل بَعْدَ أن ظلمها الرؤساء المتعاقبون ولَمْ يعطوها مَا تستحقه مِن الدَّعْم والثناء ، وهَذَا هُو فِي رأينا مَا قوى ساعد نتنياهو وشجعه عَلَى أن يدفن اتِّفَاق أوسلو والاتفاقيات المتفرعة عنه وأن يصول ويجول فِي المنطقة، بَلْ ويتمادى إلَى حَدّ اعتبار تصدي المقاومة اللبنانية لعدوان قواته فِي أوائل سبتمبر ١٩٩٧ وخسارة إسرائيل الفادحة فِي المواجهه ـ اعتبار هَذَا العمل الوطني الشريف إرهابًا ، أي أن مقاومة العدوان قَد أصْبَحَت فِي قاموسه إرهابًا.

ولَعَلَّ هَذَا التشجيع الأمريكي أو عَلَى الأقل السكوت هو ما دفع إسرائيل إلَى التحرك فِي المنطقة بحرية تَامَّة سواء فِي المناطق المحتلة أوفِي لبنان ورسم سياساتها العسكرية وفْق التوازنات الَّتِي تقدرها ، ناهيك عَن سياساتها النووية وإزاء بقية أسلحة الدمار الشامل، وهِيَ آمنة مطمئنة مِن أي موقف عربي حازم تضعه إسرائيل عَلَى الأقل ضمن حساباتها فِي أي قرار هام. أما أوهام بني إسرائيل وأباطيلهم فَلَمْ يعد يجوز السكوت عنها. وأختار مِنْهَا هُنَا ثلاثة: **الوهم الأول** الَّذِي تاجر بِهِ اليهود طويلاً هو أن لَهُم حقًا إلهيًا مصدرة التوراة فِي فلسطين والقدس وأنَّهُم كَانُوا ملوك هَذِهِ الأرض وطردوا مِنْهَا لكنهم متعلقون بهَا وعادوا إلَيْهَا تنفيذًا للوعد الإلهي. وُردنا عَلَى هَذَا الوهم مَا يَلِي :

إن أول الَّذِينَ آمنوا بموسى عَلَيْهِ السلام هم سحرة مصر وبعض المصريين وَأن مِن خرجوا مَعَ موسى مِن مصر هم خليط مِن المصريين وَبني إسرائيل وَبذَلِك تحول بنوإسرائيل مِن المستوى العرقي إلَى المستوى الديني أي أتباع موسى وَتحقق شقًا رسالة موسى: هلاك الفرعون الَّذِي استكبر عَلَى التوحيد، وخروج بني إسرائيل مَعَ موسى إنقاذًا لَهُم مِمَّا عانوه فِي مصر.

إن موسى دخل فلسطين داعيةً ومنتصرًا للإيمان عَلَى الكفر ولَمْ يدخلها غازيًا وفاتحًا ، وبذَلِك يكفيه هداية سكانها إلَى دين الله ولَيْسَ وراثة بني جلدته للبلاد وأهلها .

إن الوعود الإلهية الدعاة مصدرها موضوع كَمَا أشار إلَى ذَلِك القرآن الكريم " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ".

إن فترة حكم اليهود لفلسطين قَد طواها الزمن ضمن مَا طوى من أنظمة وإمبراطوريات وتعدلت خرائط العالم مئات المرات طوال الألفي عام الماضية وإذَا جاز الرجوع باليهود إلَى حكم فلسطين لمجرد حكمهم لَهَا عشرات مِن السنين لجاز إعادة العرب المسلمين إلَى الأندلس الَّتِي حكموها قرابة قرون.

أما الوهم الثاني : فَهُو أن لليهود حقًا فِي أهرامات مصر لأَنَّهُم شاركوا عبيدًا فِي بنائها ، وقَد كفاني المتخصصون دحض هَذَا الوهم إذ أبانوا أن الأهرامات بنيت قبل أن يظهر بنوإسرائيل فِي مصر بعدة قرون .

وأخيرًا الوهم الثالث : وهُو أن إسرائيل ستظل تعربد فِي المنطقة دُونَ رادِع، وهُنَا نأتي إلَى مفصل المشكلة مَعَ إسرائيل. فَإِذَا كَانَت إسرائيل ركبت قطار السلام للمزايدة عَلَى العرب ، فَإِن العرب هَذِهِ المرة ركبوا قطار السلام كخط استراتيجي لا رجعة فِيهِ، ولِذَلِكَ وجب عَلَى العرب العمل وحدهم عَلَى إنقاذ السلام مِن المهرجين والمتنطعين وذَلِك بإعادة دراسة كيفية مواجهه كَافَّة التصرفات الإسرائيلية عَلَى الأرض أَوَّلاً بأول بَعْدَ أن اقتنع الجميع بأَن الشكوى للولايات الْمُتَّحِدَة ومجلس الأمن هُو تحكيم نفس الطرف فِي ذَاتَ قضيته مَهْمَا تنوعت أوصافه كشريك ووسيط وعراب وغيرها مِن الصفات والأسماء. ودُونَ دخول فِي تفاصيل كيفية تصدي العرب لإسرائيل بقواهم الذاتية وهُو أمر لا مَفَرَّ مِنْهُ إذَا أرادوا سلامًا حقيقيًا، تَكْفِي الإشارة هُنَا إلَى أن مساندة الحكومة اللبنانية للحركة الوطنية اللبنانية والتصدي الجاد لإسرائيل فِي جنوب لبنان أرغم حكومة إسرائيل عَلَى التفكير بصوت عالٍ حول التكلفة السياسية والأمنية والعسكرية لوجود إسرائيل فِي الجنوب ، وظني أن الجنوب بوضعه الجديد أصْبَحَ محرقة لأصابع إسرائيل، وسَوْفَ لا نندهش إذَا انسحبت إسرائيل لا امتثالاً لقرار مجلس الأمن ٤٢٥ /١٩٧٨ ولَكِن امتثالاً لمصلحتها فِي الإفلات مِن محرقة الجنوب، وهُو درس بالغ الدلالة لا يجوز أن تفوت حكمته عَلَى المراقبين .

٣ـ حتى لا تصبح القمة العربية غاية في ذاتها

لا يخفى أن عقد قمة عربية صار من الألغاز العربية، إما بسبب الضغوط لمنع عقدها، وإما لعدم توافر الإرادة السياسية لتنفيذ ما يمكن تقريره فيها، حتى استقر في الوجدان العربي أن عقد قمة تقرر أمورا لا تنفذ أولا تقرر شيئا هاما هي إضافة إلى الهوان العربي. أما في هذه الظروف وحيث يغلي الشارع العربي فإن الأنظار تتجه صوب القمة أملا في أن تكون متجاوبة مع نبض هذا الشارع ومدركة لمسئولياتها كقيادات عربية رسمية. فإن تطابق موقفها مع نبض الشارع أضاف ذلك أساسا جديدا لشرعية النظم العربية وحكامها، إذ ليس سرا أن الشعوب العربية الآن تقيس هذه الشرعية بمدى التفاعل والفاعلية، فلا قيمة لدولة مهما عظمت إمكانياتها إن لم تترجم هذه الإمكانيات لتحقيق أهدافها ولا قيمة لمئات الملايين من العرب إذا كانت حفنة الغرباء تنزل بهم الهوان في عقر دارهم، وأن يصبح مستأجر العقار أقوى من الساكن والمطالب بطرده وإبعاده .

وحتى تصل القمة في شجاعة إلى قرارات هامة يجب أن تتوفر لها البصيرة بعدد من الحقائق التي سترتها فترة طويلة ظروف معينة، وأولى هذه الحقائق أن إسرائيل التي آمنت بالقوة تريد أن تجعل القوة سندا وحيدا لحق مزعوم، وظلت طوال محاولات التسوية السياسية تدعم قوتها وتجمع بين السلام والقوة، بحيث يعد سلاما يعكس هذه القوة كما يعكس ضعف الطرف الآخر. وليس سرا أن أوراق القوة في الساحة الفلسطينية قد تبددت طوال السنوات السبع من أوسلو وحتى الآن بعد أن اعتقد العرب أن السلام التعاقدي كفيل بتوفير السلام والأمن للجميع، ولكنهم غفلوا عن أن التسويات ليست ذات طابع خيري أوأخلاقي، وإنما تقوم على المنطق السياسي الأبدي، وهوأن القوي يأخذ من التسوية بقدر قوته، وأن الضعيف ينال منها قدر ما يعانيه من ضعف، والقول بغير ذلك مجافاة لهذا المنطق، وكسر لمنطق العدل فيه الذي يأبى أن يسوي بين القوي والضعيف على مائدة التسوية واقتسام الحقوق، مع أن الحق الذي يقتسم هو كله حق الضعيف ولكن ضعفه هوالذي جعل حقه متنازعا عليه، ثم اضطره إلى أن يقبل بما تبرع به القوي .

الحقيقة الأخرى : هي أن التنازل الذي تتحدث عنه إسرائيل عندما تعيد الأراضي إلى أصحابها مصطلح يجب أن يوضع في مكانه الصحيح، وهوأن صاحب الحق هو الذي يتنازل، أما مغتصب الحق فلا يكون متنازلا إن هو أعاده كله أوبعضه إلى أصحابه بل إن إعادته الحق هي صدوع لمنطق سوي.

ونأتي بعد ذلك إلى قضية حساسة، وهي القدس، لماذا سكت العالم العربي عن المطالبة بالقدس الغربية ؟ هل لأنها في ذاكرة جيل انقضى ؟، أم لأن الهوان العربي استكثر أن يسجل موقفه من حقه؟، أم لأن الساسة الجدد في العالم العربي وفلاسفة هذا الزمان أرادوا أن يؤكدوا أن الحكمة هي أن تتحلى بالواقعية فلا تطالب بشيء لا يرجى السماع له ؟، أوأن المطالبة به مع قلة الشيء يخلق عدم تناسب واضحا بين الحق والقدرة فيجعل سذاجة صاحب الحق واضحة ؟، أم أن الذين سلموا بقيام إسرائيل اعتقدوا أن الخلاف معها وليس عليها ؟، وأن هذا الخلاف يبدأ منذ احتلالها للأراضي العربية عام ١٩٦٧ م ؟، وأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ قد أسبغ الشرعية على كل المكتسبات الإقليمية الإسرائيلية بما في ذلك القدس الغربية، أم أن العرب ظنوا أن المطالبة بالقدس الغربية يمكن أن تتم بعد استعادة الشرقية ؟، أم أنهم ظنوا أنه إذا استحال استعادة الشرقية على ما يبدو فكيف نطالب بما هو أبعد؟، أم أن العرب مثل إسرائيل ليس لديهم ما يقولونه بشأن القدس الغربية ؟ .

فليس لدى العرب مبرر نفسي للمطالبة بها، كما ليس لدى إسرائيل مبرر قانوني للاحتفاظ، والغريب أن إسرائيل ساقت حججا واهية، وكلها غير قانونية، ولم تقدم حجة دينية واحدة كعادتها عندما يعوزها المنطق القانوني مهما كان سقيما، فتلجأ إلى التوراة وإلى التاريخ لعلها تجده في جهل المخاطب بهما وسلطان الدين والتاريخ ما يرهبه فكريا ووجدانيا، فينعقد لسانه عن البيان والإفصاح. فالقدس كلها شرقا وغربا عربية إسلامية، ويجب أن تكون نقطة البداية هي هذا التناقض الكامل بين حق العرب في كل القدس وغصب إسرائيل بنفس الوسيلة لهذه المدينة التي قسمتها إسرائيل إلى عربية وشرقية مع أن الصحيح هو شرق القدس وغرب القدس ما دامت المدينة واحدة في الأصل وأن تقسيمها قصد التهامها تدريجيا، ثم الدعوة إلى توحيدها بعد التهامها.

ولا يجوز أن يتوقف الزعماء العرب لحظة واحدة أمام ما قد يثنيهم عن مواقف سابقة بشأن القدس ؛ لأن إسرائيل نفسها وهي المغتصبة لكل القدس تنكر إعادة جزء منها للعرب أوتنفيذ ما تتفق عليه رغم ما فيه من ظلم لصاحب الحق الأصلي. فقد استقر موقف مصر منذ كامب دافيد وحسبما سجل الرئيس السادات في خطابه إلى الرئيس الأمريكي كارتر على أن المطلوب هوالقدس الشرقية، ولا ضير على مصر إن هي رجعت إلى الحق، وهو أن كل القدس لصالح المقدسات اليهودية غير المحددة، فلتظهر للعرب والعالم أنها جديرة بذلك لا بقوتها الخرقاء ولكن بسلوكها المقنع ومنطقها الحضاري .

والأمر الأخير الذي لا يجوز أن يفوت على القمة هو أن الشعوب العربية لا تموت، وهي إن سكتت وبدا أنها قبلت، فإن لذلك حدودا ولنا من هبة الأقصى درسا واضحا، ويجب أن ينصرف هذا الدرس إلى ما يجاوز الصراع العربي الإسرائيلي، وتلك الشعوب هي الذخيرة الحية لعزة النظم السياسية ومكانة الدول، ولن ينتهي الصراع للصالح العربي ما لم نتنبه إلى إصلاح سياسي شامل في الداخل، ولا يجوز أن تطالب القوة باستثناء مسيرة السلام، فتكون بذلك قد فاتها الحكمة من الأحداث الأخيرة ولبت طلب إسرائيل، وإنما لا بد أن تصر القمة على بدايات جديدة تعيها إسرائيل أولا، وتبدأ بمحاكمة عادلة لمرتكبي مذابح الفلسطينيين، على أساس أن حرب الإبادة ضد الفلسطينيين تقوم بها الدولة الإسرائيلية كما يقوم بها المستوطنون، وأن إسرائيل عجزت حتى عن استيعاب عرب ١٩٤٨ م، ١٩٦٧ م، ودمجهم في مجتمعها على أساس العدل وعدم التمييز .

وليكن واضحا أن استقلال أراضي السلطة الوطنية وإن بدا أنه تم شكليا بموجب أوسلو، فإن أساسه الحقيقي هو حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وأن اعتداء إسرائيل على كل الأراضي الفلسطينية هواعتداء على أراض أجنبية يتطلب تطبيق ميثاق الأمم المتحدة بشأنه وأن إبادة الشعب الفلسطيني الأعزل هي أبشع صور إرهاب الدولة الذي لا يجوز أن يمر دون حساب .

فإذا كانت القمة سوف تعتبر مجرد انعقادها في هذه الظروف بطولة يسجلها التاريخ دون أن تقوى على أن تحلل الموقف وتتخذ ما يتطلب من قرارات فإن عدم انعقادها قد يمكن تبريره، أما عجزها فسوف يكون من الصعب قبوله، صحيح أن انعقاد القمة وسط ضغوط تعويقها مهم، ولكن الأهم أن تظل القمة وسيلة إلى غاية أعظم .

٤ـ العالم العربي وحصاد الحملة على أفغانستان

عندما كتبت في أوائل أكتوبر ٢٠٠١ م وقبيل بدء الضربات الجوية الأمريكية في أفغانستان، وحذرت من مخاطر خلط الأوراق في حمى الإرهاب لم يساورني أدنى شك في النتائج الماثلة الآن، وهي أن الولايات المتحدة والغرب بوجه عام يريد أن يعيد عصر الاستعمار الذي رزح تحته العالم الإسلامي طوال القرون الأخيرة، ولكن بأساليب جديدة، وقلت يومها أخشى أن يشترك العالم الإسلامي وسط هذه الحمى في الإضرار بقضاياه، وطالبت بموقف واع من جانب العالم الإسلامي .

وكانت التداعيات، إن نجحت حملة أفغانستان، بادية وضحاياها تمر أمام مخيلتنا وكأنها شريط واضح القسمات. وقد تسابقت الدول الإسلامية إلى مساندة الحملة الأمريكية بوصفها حملة دولية ضد الإرهاب، ظنا منها أن وجودها في الركاب العسكري وحضورها السياسي والإعلامي هي القربى من واشنطن لعل ذلك يعفيها من شرور الحملة وشررها المتطاير .

ويبدو أن نجاح واشنطن في حشد العالم كله في هذه التجربة العسكرية، والقضاء بكل السبل غير الأخلاقية وغير القانونية على نظام طالبان والقاعدة، بصرف النظر عن اختلاف وجهات النظر حولهما قبل الحملة وبعدها ـ قد أوهم الغرب أنه من الضروري أن يزيد إسهامه العسكري في الساحات الأخرى حتى يبرر خطته في قسمة العالم بين دول الشمال في أسلاب الجنوب، وابتداع قواعد خاصة في مواجهة العبيد الجدد والقدامى .

وإذا جاز القول أن باكستان هي مفتاح العمل الأمريكي في أفغانستان وما وراءها طمعا في قطف بعض المكاسب خاصة في كشمير، فإن باكستان هي أولى الضحايا وأول الخاسرين، وتليها القضايا الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وعلى الطرف الآخر تقف إسرائيل وقد استفادت من جميع المواقع وضمنت تطابق مصالحها مع الموقف الأمريكي بما يمكنها هي الأخرى من جني الثمار كاملة دون أن تخسر شيئا .

فمن ناحية، بدأت باكستان حصاد الأشواك عندما توهمت أن التحالف مع الولايات المتحدة سوف يحقق كل مصالحها وخدعها رضا واشنطن في البداية عنها ورفع العقوبات التي كانت فرضتها عليها بسبب تفجيراتها النووية وإسقاط بعض ديونها وتقديم بعض المساعدات إليها. ولكن الهند سارعت هي الأخرى إلى القفز في قطار الحملة الأمريكية مما ضمن لها نفس المزايا السابقة، وزاد عليها أن أيدت واشنطن موقفها في كشمير، وانضمت إلى الهند في مطالبتها باكستان بإنهاء جماعات " الإرهاب " في كشمير، بل ضمنت الهند بمسعى أوموافقة أمريكية مشاركة إسرائيل معها في أي صدام محتمل مع باكستان .

ولا شك أن باكستان وقنبلتها النووية كانت وستظل هدفا لإسرئيل ؛ مما جعل التحالف الاستراتيجي الذي انعقد في أوائل يناير ٢٠٠٢ م حاسما في إبراز اختلال ميزان القوة في شبه القارة الهندية، في وقت فقد فيه العالمان العربي والإسلامي أية مرونة أوقدرة على التحالف أوصناعة التحالف على النحو الذي أجادته إسرائيل .

وبديهي أن توتر العلاقات الباكستانية الأمريكية قد رافقه حسرة باكستان وخيبة أملها، لأنها تعلم أنه لولا الموقف الباكستاني لما كان بوسع واشنطن أن تنال من طالبان على النحو الذي لا شك يعرفه القارئ، ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيله. فقد جلبت باكستان لنفسها كل المتاعب وراهنت على الحصان الخاسر، وعرضت أمنها لخطر من كل الاتجاهات : عدم الاستقرار في أفغانستان، توحش الهند، اضطرار باكستان إلى مخالفة مشاعر شعبها المؤيد لكشمير، وإسهامها في إضعاف موقف المجاهدين في كشمير من حيث كانت باكستان تتصور خطأ أن انحيازها المطلق لواشنطن سوف يؤدي إلى تسوية قضية كشمير بلا حاجة إلى جهاد أومقاومة، فإذا بها تفاجأ بإملاءات نيودلهي وواشنطن نفسها تشبه التحالف الأمريكي الإسرائيلي وإملاءاته ضد الفلسطينيين.

أما الخاسر الثاني في إطار العالم الإسلامي، فهو إيران التي تساند موقف الهند في كشمير وقدرت موقفها من الحملة الأمريكية في أفغانستان على ضوء عدد من الاعتبارات غير

الاستراتيجية في مقدمتها تلهف إيران على الخلاص من طالبان بعد تاريخ طويل من التوترات التي وصلت يوما إلى الصدام المسلح بينهما بعد جرائم طالبان ضد الدبلوماسيين الإيرانيين في مزار شريف عام ١٩٩٧م، ومنها موقف إيران من تنظيم القاعدة وبن لادن. ولم تكن إيران تتصور أن واشنطن ستستهدفها، وأنها تدفع دفعا من جانب إسرائيل للضغط عليها، أوالصدام معها لاعتقاد إسرائيل بدور إيران في دعم المقاومة ضد إسرائيل .

فقد كان واضحا منذ بداية الحملة أن الوجود العسكري الأمريكي في باكستان وأفغانستان يكمل الحصار الأمريكي لإيران في الخليج، ويحبط أي تقارب إيراني مع العالم العربي من ناحية، ومع العراق بوجه خاص، وتواصل إيران مع سوريا ولبنان من ناحية أخرى .

وأما الخاسر الثالث في الترتيب والأول في حساب الخسائر والمنافع فهو المقاومة الوطنية وشعوبها في فلسطين ولبنان. ولعلنا نذكر أن الرأي قد انقسم في بداية الحملة حول أثر الحملة على القضية الفلسطينية. وكان رأي البعض أن بوادر الأمل تلوح مع تقدم أعمال الحملة، بينما كنت مع كثيرين نرى أن فلسطين هي أكثر الضحايا خسارة، لأن إسرائيل تمكنت في غيبة دبلوماسية عربية أوإسلامية من انتهاز كل الفرص، بحيث أصبح إبعادها عن اللحاق بالحملة مكرمة تستحق الإنعام عليها والاستجابة لطلباتها والتأييد التام لكل حماقاتها.

وبلغ النصر الإسرائيلي مداه عندما حصلت على تأكيد أمريكي وأوربي على أن المنظمات الفلسطينية المقاومة وحزب الله، منظمات إرهابية يجب تفكيكها .

وما دامت إسرائيل تفكر وتخطط لعالم جديد تستحوذ فيه على كل الشرق الأوسط والعالم العربي، فقد أعلنت واشنطن أنها ماضية في حملتها ورشحت للمرحلة الثانية كلا من العراق واليمن والسودان والصومال، رغم أن اليمن والسودان والصومال قدموا كل فروض الطاعة والولاء واعتقدوا أنهم أصبحوا بمنجى من العصف الأمريكي، ولكن المصالح الإسرائيلية الواضحة في هذه الدول الأربع جعلت واشنطن تحث في استهدافها.

وفي ظني أن من توابع هذه المرحلة من الحملة فتح ملف القدس الآن، بينما عرفات رهينة في رام الله، والشعب الفلسطيني كله تحت رحمة سلطات الاحتلال، وشبح الإرهاب كما تراه واشنطن وإسرائيل مسلط على شعوب المنطقة بأسرها.

٥ـ نحو قمة عربية

موضوعها : الوجود العربي المستباح

لا أبالغ إذا قلت إنني أعبر عن قناعة كل الشعوب العربية وكل المثقفين العرب في المطالبة بعقد قمة عربية مع بداية العام الجديد وهو الذكرى السابقة لقمة مجلس الأمن التي ارتفعت بآمال المجتمع الدولي في نظام دولي مستقر وعادل مستند إلى حكم القانون إلى مستوى النجوم، ولتكن القمة العربية جزءا من جهد دولي عام في مختلف مناطق العالم يعلن تمسكه بنظام له قسمات واضحة يليق بمكانة البشرية في الألفية الثالثة ولا يستسلم لارتدادها إلى ما قبل عصر الحضارات القديمة .

أما مناسبة القمة فهو ما كشف عنه الهجوم على العراق وسلوك إسرائيل إزاء عملية السلام وإزاء المنطقة العربية من أن العرب في نظر الآخرين أصبحوا غير مؤهلين للبقاء وليسوا جديرين بمكانهم، ناهيك عن عجزهم عن أن يكون لهم مكان على خريطة القوى العالمية في عالم تتزاحم فيه القوى فرادى وجماعات لتشكيل النظام الجديد الذي لم يتشكل قط منذ انهيار نظام الحرب الباردة رسميا. وإذا كان الوجود العربي نفسه هو محل الاختبار، وأن نظرة الآخر لهم هي ألا وزن لهم في قرارات الأخير المتعلقة بالعرب وبقضاياهم تصبح قضية عقد القمة لهذا السبب بجذوره ومضمونه وتفريعاته مطلبا شعبيا لا سبيل أمام الحكومات العربية سوى الاستجابة له بعد أن اتسعت الهوة بين إدراك الشارع العربي لهذه الكارثة وبين الحسابات الرسمية في العواصم العربية .

وأما موضوع القمة فهو قضية العراق وهي عنوان كل ما يهدد الوجود العربي، ولندرك هذه الحقيقة، لابد أن نتناول جذور المشكلة وصلبها وهوأن غزو العراق الكويت أثار على الفور أربع قضايا متشابكة : بالنسبة للعالم العربي كان الغزو يعني أن النظام العربي غير قادر على لجم القوة العراقية وإعادتها إلى مكانها، وأن قمع القوة العراقية التي مورست بشكل سافر تحديا لكل القيم العربية وجهلا بقواعد اللعبة الدولية يتطلب قوة عربية فورية أكبر، وهو ما لم

يتوفر.القضية الثانية : بالنسبة لدول الخليج، صور لهم الغزو حقا أو مبالغة على أنه ابتلاع لرأسهم في الخليج وأن القدم العراقي بالغ غايته حتى نهاية الجسم الخليجي، فهو مقدمة تتطلب خاتمة، وأمام ضعف القوة الخليجية مجتمعة وانهيار نظام الأمن الجماعي العربي وتداول قصص التآمر الأردني الفلسطيني اليمني وغيره مما تردد حقا أو كذبا اشتد فزع هذه الدول من الغول العراقي، وكان البديل الجاهز دائما هوشراء الأمن بكل نفيس وتأمين الأقطار بأي ثمن عن طريق توظيف شركات الأمن الغربية الخاصة الأمريكية، التي خلقت المشكلة وتولت هي تقديم الحل الجاهز. أما القضية الثالثة : التي أثارها الغزو فتخص إسرائيل، حيث يعني الغزو أن العراق يغادر حدوده للمرة الثانية بعد غزوه إيران، وأنه وإن كان نظاما حليفا للغرب ويأتمر بأمره، فإن تحطيم القوة العراقية أصبحت مسئولية قومية في إسرائيل جربتها ضد المفاعل العراقي ١٩٨١ م، واغتيال علماء المشروع العراقي، وقررت أن القضاء على العراق كلية من أي معادلة للقوة في المنطقة حتى لو كانت نظرية يجب أن يكون هدفا إسرائيليا يوظف له المجتمع الدولي كله وتمثله الشرعية الدولية الخاصة جدا وستارها الفضفاض : الأمم المتحدة. وأخيرا كانت القضية الرابعة هي المتعلقة بالمصالح البترولية العالمية وحساباتها والتي تحبذ اعتقال العراق .

والحق أن العراق عمق هذه القضايا الأربع وأثار لدى أصحابها مختلف المخاوف وجمعهم جميعا في خندق واحد وعلى موقف واحد، وهو أن في غياب العراق واعتقاله وتخطيه مصلحة إقليمية ودولية، في ضوء بربرية الغزو وسلوكيات المحتل ضد البيئة والحضارة والعمران والسكان وغباء مشبوه في رفض الانسحاب والإصرار على الفناء على أمل أن يحظى بمقام الشهداء. وهكذا صورت القضية من جانب الولايات المتحدة ومن ورائها إسرائيل على أن العراق المعتدي والذي أزيح بالقوة بعد تدميره يجب أن يظل معتقلا داخل حدوده محاصرا جائعا وأن تسخر موارده التي تدار تحت الوصاية لسداد المستحقات والتعويضات، وأن تقسم أراضيه لصالح القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والتركية وأن يتم تشجيع أقلياته الكردية والشيعية على الحكم الذاتي رغما عن إرادة بغداد المشلولة، وأن تعبث فرق التفتيش في كل مقدراته إلى ما

شاء الله من السنين، وألا يرتبط عمل هذه الفرق بأي جدول زمني أوتجرى بقياس بحيث يرفع الخطر عنه في نهاية المطاف إن كان له نهاية.

وقدم أمن دول الخليج على أنه ما دام العراق جائعا ضعيفا محاصرا معتقلا فإن أمنها مضمون نصفه، والنصف الآخر يضمنه الوجود العسكري الأمريكي البريطاني، بحيث يتم التفيش في العراق على نفقته، أما نفقات الوجود العسكري الأجنبي وعملياته ومتطلبات التسليح لهذه الدول وفق تقديرات واشنطن وحسابها لمصادر الحظر وجديته فتدفعها دول الخليج، وهو قرار أمريكي ما دامت واشنطن هي الأدرى بقوة العراق والوصي لتأمين هذه المنطقة. وطبيعي أن يكون من مصلحة هذا الوصي أن يبرر استمرار وجوده وإنفاقاته ووصايته، وذلك بالإيحاء بأن العراق مصدر خطر دائم ولكي يكون كذلك فلابد من بقاء صدام الذي يجيد اللعبة الجديدة ما دام شعبه وخزائن الدول المجاورة هم الذي يدفعون ثمن بقائه الذي تلتقي عنده مصلحته ومصلحة واشنطن.

إزاء هذه المعادلة المعقدة ترى واشنطن أن أمن البترول ودوله مصلحة قومية أمريكية ووجودها العسكري المدفوع مرتبط بوجود صدام بالسلطة، والحل هو: استمرار قتل العراق حتى يحكم صدام مقبرة للموتى أويستنفر العراقيون لقتله، ثم إقدامه على مذبحة رمضانية إمعانا في حريتها في التصرف بجثة العراق، ومن ورائه مقادير المنطقة العربية. أما العالم العربي فقد استراح إلى أن واشنطن تتولى عنه ملف العراق وتؤمنه من مخاطر تجدد العدوان العراقي المزعوم، وأصبح يردد في غيبوبته الطويلة مقولات واشنطن، وهي ضرورة احترام بغداد للشرعية الدولية المقدسة فقط في حالة العراق دون إسرائيل، وتنفيذ العراق لكل قرارات مجلس الأمن ذات الصلة، وأن يكف عن عرقلة عمل لجان التفتيش وأن يتعاون بأدب مع رئيسها بتلر وطلباته العادلة، حتى لوقرر تفتيش العراقيين أنفسهم تفيشا ذاتيا، مع استمرار واشنطن إثارة مخاوف الخليج بأن العراق يخبئ أسلحة الدمار الشامل ويطور أسلحة نووية، وأنه يتحين الفرصة للانتقام ممن كان السبب في خرابه وهو الخليج وأوله الكويت التي قررت واشنطن في مذبحة رمضان في العراق ومن طرف واحد أن تنشر قواتها فيها لحمايتها مما قدره البنتاجون إجراء احترازيا يقتضيه

التفكير الاستراتيجي السليم، وكله بثمنه ! ، ثم تستدرك الحكومات العربية بأن قلبها على شعب العراق وأنها تتمنى أن يخلصها الله من قيادته سبب الجفاء ومجلبة الخراب للشعب البائس .

نريد للقمة أن تدعو العراق إليها وأن تتدارس بشجاعة الرجال هذه الحقائق، وأن تعيد طرح القضية لا كما تراها إسرائيل والولايات المتحدة، ولكن كما يجب أن يراها العالم العربي بحجمها الحقيقي وهو: كيف يمكن عدم ضمان تكرار العدوان العراقي على الكويت ؟، قد يكون الحل بنزع السلاح أوإضعاف حكومته المركزية، أوبغيره، مع العلم أن انفلات الأقاليم عن العاصمة يعني توزيع العراق بين تركيا وإيران والغرب وانتشار الفوضى إلى دول الخليج التي يجب أن تدرك أن الوجود العسكري الأجنبي لتأمينها من العراق كما يدعى وانخفاض أسعار البترول ثمرة المخطط الغربي الكيسنجري، وتعدد المؤثرات الاجتماعية في مجتمعات هذه الدول وأيدي الغرب العابثة فيها تحت ستار الديمقراطية وحقوق الإنسان تشكل كلها أكبر خطر على وجود هذه الدول، وهوجزء من مخطط لإسرائيل دور بارز فيه وفيما ينتهي إليه، وهكذا يجب أن تخرج القمة بحل ناجح لكيفية توقي الخطر العراقي المحتمل يكون العراق نفسه طرفا فيه ولو لبعض الوقت، فالحل ليس فيما تصوره واشنطن ولا في زوال صدام ولا في قيادة العراق .

يرتبط موضوع العراق بقضية أخرى أكبر وهي أن للعرب مصلحة في بقاء الشرعية الدولية في الأمم المتحدة وفي احترام الجميع للقانون الدولي، ولابد أن يعلنوا تمسكهم بهذه الشرعية والسعي لدعم الأمم المتحدة، وليس المشاركة في الإجهاز عليها كما تريد واشنطن وإسرائيل، بل أن يقرر العرب التكاتف مع غيرهم من أجل بناء نظام يحقق مصالح الجميع ولا تنفرد فيه دولة واحدة بالقرار، ذلك أن الساحة العربية هي أولى ضحايا الانفلات إذا أريد للمنطقة أن تتجنب لعبة سباق التسلح، وهي في أسوأ حالاتها ماديا واقتصاديا. ولابد من طرح حلول جريئة لإنقاذ المنطقة والعالم من جنون القوة التي تنذر بدمار للبشرية وهزيمة كل منجزاتها.

ومن هذه القضية العامة تتفرع قضية ثالثة وهي : ضرورة الوقوف بحزم إزاء إسرائيل وعدم التعويل على الولايات المتحدة، فليس صحيحا أن واشنطن توزع الحقوق على أصحابها زلفى إلى الله، وإنما لابد أن يبحث العرب في اتخاذ موقف واحد يرغم إسرائيل على أن تأخذ هؤلاء

العرب في الاعتبار عندما تقرر شيئا ضد لبنان والفلسطينيين والقدس ولا يجوز أن يلوذ البعض بالاعتقاد أن السلام يخص أطرافه المباشرين مع إسرائيل، وإنما السلام يخص المنطقة بأسرها وأن مجالها الإقليمي لا يتجزأ. وليدرك الجميع أن تلك هذه الفرصة الأخيرة لكي تثبت الحكومات العربية جدارة العرب بالبقاء ولم تكن مذبحة رمضان في العراق سوى اختبار للحالة العربية التي تثبت أن جلدها قد أصابه الجفاف ولكن الجسم يغلي بما لا يمكن توقع عقباه، ولتكن للك قمة إنقاذ ما تبقى من الكرامة العربية المهددة المهدرة ولوقف آخر محاولات إخراج العرب حقا ليس من التاريخ فقط ولكن من ديارهم وهم مقيدون في قوائم الأحياء بعد أن عز عليه نبض الحياة وحيوية الأحياء .

٦ـ دلالة الانتفاضة في مسيرة الصراع :

ماذا بقي من الصراع (العربي) الإسرائيلي ؟

يشير تاريخ الصراع بين العرب والمشروع الصهيوني إلى أنه يستهدف المنطقة كلها، منطلقا من قاعدة إقليمية هي فلسطين. وكان طبيعيا أن تكون أولى مراحل الصراع هي تلك المقاومة التي أبداها الفلسطينيون لموجات الهجرة اليهودية والاستيطان؛ لأن الاستيطان قوامه توطين المهاجرين اليهود في مناطق التجمعات الفلسطينية وإحلال اليهود محل الفلسطينيين بكل الوسائل الممكنة سواء بالطرق التجارية كشراء الأراضي أوبالطرق الأخرى كالإرهاب وغيره.

فالمرحلة الأولى من الصراع اتسمت بالصراع بين أقوام جاءت خصيصا للإقامة وصممت على انتزاع الأرض وإنشاء الكيان ضمن مشروع تنوعت أسس مضمونه الأيديولوجي في خليط من الدين والسياسة أقنع أتباعه باقتحام فلسطين، فكان الصراع يهوديا فلسطينيا محضا لم تدرك أبعاده المنطقة العربية بشكل كاف، كما لم تكن قادرة بحكم الواقع الاستعماري والطابع الاستعماري للمشروع الصهيوني ـ على التصدي للهجمة اليهودية الصهيونية. يكفي أن نتأمل الموقف العربي الرسمي والشعبي من النضال الفلسطيني، وخاصة الثورة الفلسطينية الكبرى في منتصف الثلاثينيات ويتلخص في أن العرب لم يدركوا تماما أن الفلسطينيين يقاومون الاستيطان والإحلال والاقتلاع .

كما لم يدركوا أنه من الخطورة بحيث لا يجوز السكوت عنه إلا عندما قامت إسرائيل رغم أنف العالم العربي الذي أجبر على القبول بتقسيم فلسطين وبكيان غريب ينذر بإذلال المنطقة بأكملها. ولقد برز خلال هذه المرحلة الأولى، التي انتهت بأول مواجهة عربية يهودية الدرس الأول في الصراع والذي لا يزال قائما حتى كتابة هذه السطور، وهوأن المسافة الفاصلة بين النظم العربية والشعوب العربية، وبين القدرات العربية والأداء العربي تجبر المثقفين العرب على الالتفات إلى هذه الإشكالية الفاصلة، سواء في سير الصراع أوفي تحديد مستقبله .

بدأت المرحلة الثانية من الصراع بدخول الدول العربية المستقلة آنذاك إلى ساحة الصراع؛ فتحول من صراع فلسطيني يهودي إلى صراع عربي صهيوني، مساحته العالم كله وأطرافه على امتداد هذا العالم وأدواته لا حدود لها في صراع مفتوح في ساحته وأطرافه وأدواته وأهدافه؛ ومن ثم كانت معضلة النظر في مستقبله، يقابل هذه الخصيصة تفاقم المساحة الفاصلة بين قدرات العالم العربي، وأداء نظمه السياسية في هذا الصراع .

امتدت مرحلة الصراع بين المشروع الصهيوني وقاعدته إسرائيل منذ ١٩٤٨ م حتى ١٩٩١ م كان العالم العربي بأسره يحتضن القضية الفلسطينية والتي تحول مضمونها منذ عام ١٩٦٧ م من قضية استرداد فلسطين من إسرائيل وزوال كيانها إلى قضية أخرى مختلفة، وهي استرداد الأراضي التي احتلتها إسرائيل في عدوان ١٩٦٧ م من الدول العربية، فانقلب الهم العربي من هدفه الأول الذي تشكل فلسطين محله ولحمته إلى هم وطني مباشر، وهو احتلال أجزاء من دول عربية مجاورة لإسرائيل، وتوقف تماما الحديث عن القضية الفلسطينية في بعدها الأول توقفا تكرس بعد ذلك في عملية السلام، وكأن عملية السلام هي مقايضة عربية إسرائيلية جوهرها : أن ترد إسرائيل للدول العربية أراضيها " مع تعديلات طفيفة في الحدود بما يتفق مع المصالح الإسرائيلية " مقابل أن تسقط هذه الدول فكرة استعمار إسرائيل لفلسطين، بل وأن تعترف بإسرائيل. وبينما قبلت الدول العربية ما هو مطلوب منها في عملية السلام، لم تنفذ إسرائيل ما كان يتعين عليها عمله وهو رد الأراضي .طوال المرحلة الثانية من الصراع التي اتسمت بحق بأنها صراع إسرائيلي شامل بدأ الكيان السياسي الفلسطيني في الظهور كطرف في الصراع لكي يكون طرفا أيضا في التسوية .

ولا شك أن ظهور الطرف الفلسطيني والإدارة الفلسطينية، كان يتطلب من هذا الطرف أن يثبت جدارته لكي يكون طرفا حقيقيا في الصراع والتسوية، وكانت أولى مشاكل هذا الطرف الجديد أنه لم يكن محسوبا لا عربيا ولا إسرائيليا، وأنه لم يكن له مجال إقليمي لكي يجتاز اختبار الكفاءة النضالية في وقت أحكمت فيه إسرائيل قبضتها على كل فلسطين، مثلما أحكمت سيطرتها على المناطق المحتلة من الدول العربية المجاورة. وهكذا انشغلت هذه المرحلة

من الصراع بعدد كبير من القضايا الأساسية أخطرها التحدي الذي فرض على الطرف الفلسطيني لكي يثبت ذاته في مواجهة إسرائيل وأن يثبت تفرده واستقلاله في مواجهة الدول العربية المجاورة وسط مسعى عربي شامل لاستعادة أراضي الدول العربية بالطرق السياسية، وتأكيد هوية الطرف الفلسطيني الجديد. والحق أن ميلاد الطرف الفلسطيني في هذه البيئة العربية والدولية وفي مواجهة إسرائيل وإصراره على فرض نفسه وتحرير إرادته هي أخطر المراحل، ولا يهمنا في هذا المقام التوقف أمام الثمن الذي دفع عربيا والتكاليف السياسية والاجتماعية والأعباء الباهظة التي تحملتها دول عربية بذاتها بسبب ظهور هذا الطرف، وأخص الأردن ولبنان على وجه أخص، وإنما يهمنا الآن ونحن نقدم استعراضا عاما لمسيرة الصراع أن هذه المرحلة أيقظت الشعور العربي بخطورة الصراع وقدمت الطرف الفلسطيني بخصوصيته المعروفة إلى جانب النظم العربية، مما جعل الصراع قوميا حقا قاعدته المقاومة الفلسطينية وحواشيه العالم العربي كله حتى رغم تورط المقاومة – بحكم الظروف – في السياسات العربية الداخلية وصدامها مع الأردن ولبنان عدة مرات .

ويبدو أن إسرائيل تنبهت إلى خطورة الطرف الفلسطيني، فهو الصوت الأكثر إزعاجا لأنه صوت أصحاب الحق وأن مجمل القضية بدأت بسلب هذا الحق الذي قامت عليه إسرائيل، وما احتلال الأراضي العربية المجاورة إلا جزء من تداعيات سلب الحق الأصلي، وأنه لا يجوز أن تجور التداعيات على صورة أصل الحق. هذه الحقيقة بالذات جعلت إسرائيل توجه كامل طاقتها نحو تحقيق أمرين على أعلى درجة من الخطورة والحيوية : الأمر الأول : هو تصوير المقاومة الفلسطينية وظهور الطرف الفلسطيني على أنه على حساب استقلال دول مجاورة، بل إن وجوده يهدد وجود هذه الدول، وعلى هذه الدول أن تختار بين انتماء قومي " يتستر " وراءه الطرف الفلسطيني الجديد للقضاء على الهوية الوطنية ومقومات البقاء الوطني في وقت تراضي فيه المد القومي بفعل هزيمته، وبين استمرار بقائها واستمرار رفاهيتها على أساس أن التناقض جعل الخيار ملجأ بين المصلحة القومية " الموهومة " حسب تصوير إسرائيل ومن رأى رأيها في المنطقة، وبين المصلحة الوطنية المؤكدة. والعلاج هو اقتلاع المقاومة، وهو ما دعا أوساطا بعينها

إلى أن تتنفس الصعداء، سواء بسبب تفاقم أوضاع بلادها، أوبسبب تدخل المقاومة طرفا في صراعات داخلية، أولعدم التكافؤ بين الدول العربية في تحمل أعباء الصراع ؛ وفرق بين من يتحمل نصيبه من جيبه، وبين من يدفع حصته من هويته ويرهن له مستقبله. وفي هذا المقام يقتضينا الإنصاف أن ننوه بدور لبنان الذي لم يكن أصلا طرفا في الصراع العربي الإسرائيلي، ولكنه جر إلى قلب الصراع بسبب المقاومة الفلسطينية، ويوم تتفاضل الدول العربية في مضمار التضمينات في هذا الصراع، فسوف يحتل لبنان مكانته اللائقة في الأسرة العربية الصامدة .

لقد أدت هزيمة ثلاث دول عربية رئيسية محيطة بإسرائيل واحتلال أراضيها عام ١٩٦٧ م إلى إسباغ الطابع العربي الشامل على الصراع. ذلك أن احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ م وقيام إسرائيل، وإن أنشأ أصلا الطابع العربي للصراع من منطلق أن استعادة فلسطين هي مسئولية عربية عامة، إلا أن هزيمة ١٩٦٧ م قد أسفرت عن احتلال أقاليم عربية أخرى تابعة لدول عربية قائمة، فأصبح الالتزام العربي باسترداد هذه الأقاليم أكثر اتساعا وشمولا من الالتزام بإزالة إسرائيل واسترداد كل فلسطين. وبينما كانت هزيمة ١٩٦٧ م هزيمة لبعض العرب، فقد كان نصر رمضان في أكتوبر ١٩٧٣ م نصرا لكل العرب وعرسا في كل بيت أعاد الثقة بالذات العربية وبجدوى المشروع العربي النضالي والوحدوي .

ولكن غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠ م عقب ثماني سنوات من الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠ م — ١٩٨٨ م، وتآكل القدرات العربية بسبب مساندة العراق في هذه الحرب واعتبارها في بعض الأحيان حربا قومية تستهدف الذات والمقدسات العربية، هذه الحرب وهذا الغزو حققا لإسرائيل الشق الثاني من الأمر الأول الذي تحدثنا عنه وهواقتلاع المقاومة الفلسطينية ونفيها من المنطقة في بيروت إلى تونس ونقلها من مقاومة عسكرية في عقر دارها، إلى مقاومة سياسية يغلفها الحرج وتؤرقها كوابيس الاغتراب ومسلسل تصفية قياداتها وبالأخص كابوس انطفاء جذوة المطالبة بالحق الذي أسهم البعد والاغتراب وتقلبات أحوال المنطقة في ألا يكون في بؤرة الشعور العربي كما كان .

أما الغزو العراقي للكويت فقد أكمل الهدف الإسرائيلي، وهو تحويل الصراع عن طابعه العربي إلى طابعه الفلسطيني في ظرف كان الطرف الفلسطيني على ما قدمنا من ضعف وهوان، بل ومنع قادته من تأشيرات دخول الدول التي كان نضالهم فيها ضد إسرائيل هوشريان القضية ومعقد الأمل في جدواها. فقد جعل هذا الغزو التضامن العربي أثرا بعد حين، ووضع القضية الفلسطينية في تناقض مع تحرير الكويت وتأمين روع بقية دول الخليج، فسقطت القشرة العربية التي تكونت بصلابة في نصر ١٩٧٣ م، وعاد الطرف الفلسطيني يلهث للحفاظ على بعض مكاسبه السياسية في بيئة عربية تعاني أعتى التحديات في تاريخها من عدو جديد كان بالأمس معقد آمالها وضمن قدراتها الاستراتيجية الشاملة. ولا شك أن العراق قد أسهم من قبل في فصم العرى العربية، فأضيف الغزو إلى مضاعفات الحرب العراقية الإيرانية والتي تعاصرت مع الانقسام المصري العربي حول السلام مع إسرائيل منذ قرارات بغداد .

٧ـ نتائج قمة بيروت
وآفاق العمل العربي المشترك

انعقدت قمة بيروت العربية وسط تحديات وظروف نادرة فِي سلسلة القمم العربية. وشملت هَذِهِ التحديات كُلَّ مَا يتصل بجدول أعمال القمة، وألقت ظلالاً مِنَ الشك حول: موعدها، ومكانها، وجدول أعمالها، وقيمة نتائجها، ومَدَى فعالية القرارات الصادرة عَنْهَا.

ولَعَلَّ ظروف انعقاد القمة قَد أسهمت فِي رسم هَذِهِ الصورة السلبية للقمة قبل أنْ تنعقد. فإسرائيل تواصل حصار عرفات فِي رام الله، والتركيز لبعض الوقت، وحَتَّى اللحظات الأخيرة انْصَبَّ عَلَى مشاركته مِنْ عدمه، وشروط إسرائيل لِهَذِهِ المشاركة، فِي الوقت الَّذي استمرت فِيهِ مهمة الجنرال زيني، الَّتي تعدلت لصالح إسرائيل عِنْدَ التنفيذ، فَضْلاً عَن استمرار أعمال الإبادة الإسرائيلية ضِدَّ الفلسطينيين.

ومِنْ ناحية أُخْرَى ثار لَغَطٌ كثيرٌ حول المبادرة السعودية، ووصل اللغط إلى حد مفزع، ترك الانطباع بِأَنَّ القمة قَد لا تنعقد تجنبًا للانقسامات العربية، كَمَا ساد انطباع بِأَنَّ المبادرة قَد تشكل ضغطًا لا تحتمله القمة فِي صورتها القائمة، وأنَّ السعودية قَد تسحبها فِي اللحظة الأخيرة؛ حَتَّى تركز القمة عَلَى الجوانب الساخنة فِي القضية الفلسطينية.

وأهم جوانب اللغط حول المبادرة، هُو الاعتقاد لَدَى البعض أنَّ المبادرة سَوْفَ تُفَسَّر فِي إسرائيل عَلَى أنَّهَا ضعف وتنازل مِنْ جانِب العرب؛ استجابةً لغطرسة شارون وتأكيدًا لمقولة شارون بِأَنَّ الضغط عَلَى العرب هو الكفيل بإرغامهم عَلَى الاقتراب مِنَ السلام الَّذي تريده إسرائيل.

مِنَ العوامل الَّتي أسهمت سلبًا فِي تقديم المبادرة أَيْضًا: أنَّ الأولوية المطلقة يجب أنْ تُوَجَّه إلَى استمرار الانتفاضة، ودعمهما بكُلِّ السبل الممكنة، وأنَّ تقديم المبادرة فِي هَذَا المناخ سَوْفَ يُفَسَّر عَلَى أنَّهُ – عَلَى العكس – مناورة لوقف الانتفاضة الَّتي التفت حولها الجماهير العربية، وأوجعت إسرائيل. فَكَأَنَّ العلاقة بَيْنَ المقاومة وبَيْنَ التسوية السياسية لَمْ تكُن واضحة عشية انعقاد القمة.

وهَكَذَا عقدت القمة وصادفت أول تَحَدٍّ حقيقي، وهُوتغيب أكثر مِنْ نصف زعماء الدُّوَل الأعضاء، وأبرزهم : مبارك، وعرفات، بَلْ والملك عبد الله الثاني، الَّذي كَانَت بلاده تستضيف القمة الدورية الأولى عام ٢٠٠٠ م، وأمير قطر، الَّذي ترأس بلاده القمة الإسلامية الأخيرة .

وتعرضت القمة لحالة مِنْ عدم اليقين ؛ دفعت بعض المراقبين إلَى القول: بأَنَّهَا فشلت قبل أنْ تنعقد، بَيْنَمَا رأى البعض أنَّ انعقادها رغم هَذَا كله يُعَدُّ فِي ذاته إضافة لأسهمها. ولَكِن ظل معيار النجاح والفشل دَائِمًا هُومَدَى قدرة القمة أيًّا كَانَ حجم التمثيل الرئاسي فِيهَا، وَأيًّا كَانَت تكهنات الفشل حولها—عَلَى التصدي للقضايا الحيوية بالبصيرة وَالشجاعة اللازمتين لمستوى المرحلة الحرجة.

والواقع أنَّ نتائج القمة تعرضت فور إعلانها لِتَحَدٍّ أكبر، وهُو رفض إسرائيل للمبادرة العربية ذَاتَ الأصل السعودي، واجتياح مناطق السلطة الفلسطينية فِي اليوم الثالث مباشرة للقمة ٢٠٠٢/٣/٢٩ م، وتشديد الحصار عَلَى عرفات بدعم أمريكي عسكري وسياسي مباشر، تمثل فِي: المؤتمر الصحفي الَّذي عقده وزير الخارجية الأمريكي، مساء يوم ٣/٢٩، رغم أنَّ الولايات المتحدة أبدت اهتمامًا فائقًا بالمبادرة السعودية، وحثت القمة عَلَى تبنيها، وأوهمت العالم العربي بأَنَّهَا سعت لِكَي يوافق شارون عَلَى أنْ يطلق سراح عرفات ؛ للمشاركة فِي القمة .

وهَذَا التطور الخطير أحاط نتائج القمة بالشكوك، وصور الرد الإسرائيلي الأمريكي عَلَى أنَّهُ استهانة بهَا. وهَذَا النظر يتطلب حرصًا فِي تقييم أعمال القمة بعيدًا عَن الأعمال الإسرائيلية ؛ حَتَّى نتبين المدى الَّذي يُمْكِن أنْ تفتحه نتائج القمة مِنْ آفاق للعمل العربي المشترك .

وطبيعي أنْ تكُون المعالجة الشاملة، والتقييم الكامل لنتائج القمة فِي غَيْر السياق، وإنَّمَا نكتفي بعدد الملاحظات العاجلة فِي تحليل هَذِهِ النتائج :

أوَّلاً – أكَّدَت القمة القاعدة الَّتي انطلقت مِنْهَا المبادرة السعودية، وأضافت إلَيْهَا الجوانب الَّتي تجعلها قابلة للتطبيق بوصفها مبادرة عربية، تُؤَكِّد عَلَى استعداد العالم العربي للسلام وفْق بنود المبادرة، الَّتي تقرر أعباء عَلَى العالم العربي، مقابل التزامات عَلَى إسرائيل، وهِيَ فِي

جملتها ترجمة لفكرة الأرض مقابل السلام، الَّتي أقرّتْهَا قمة فاس العربية عام ١٩٨٢ م، والَّتي وافقت عَلَيْهَا واشنطن وإسرائيل فِي قراري مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨ فِي قمة مدريد، ومَعَهُمَا المجمتع الدَوْلي بأسره .

وَقَد لُوحِظَ أنَّ المبادرة العربية قَد تضمنت موقفًا مرنًا بالنِّسْبَةِ لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وبذَلِك خلطت بَيْنَ تأكيد الحق مطلقًا فِي وثيقة مِنْ هَذَا النوع، وبَيْنَ قدر المرونة الَّذي يُمْكِن إبداؤه عِنْدَ التفاوض. كَذَلِكَ أشارت المبادرة إلَى موافقة إسرائيل عَلَى قيام دَوْلَة فلسطينية، وجعلت هَذِهِ الموافقة ضمن التزامات إسرائيل، وهِيَ رؤية فِي القضيتين، تنزل بالحق العربي إلَى مستوى أدنى وتعطي إسرائيل حَقًّا تَدَّعِيه، ولَمْ يَكُن لَهَا فِي أي يوم طبقًا للقانون الدَوْلي .

وبالنسبة لحق العودة، فَهُو يعادل فِي قوته حَقّ إقامة الدَّوْلَة، وهُمَا حَقَّان ضَمَّنَهُمَا قرار التقسيم ١٨١ وقرار الجمعية العامة ١٩٤، وكلاهما تعهدت إسرائيل فِي الأمم المتحدة لَدَى انضمامها باحترامها، وصدر بشأنهما قرار قبول إسرائيل رقم ٢٧٣ فِي مايو١٩٤٩ م، الَّذي ينص عَلى قبول إسرائيل فِي الأمم المتحدة بشروط أهمها احترام هَذَيْن القرارين. ولسوء الحظ فَإنَّ القمة خلطت بَيْنَ المواقف المبدئية والمواقف التفاوضية .

وعَلَى أية حالة، وأيًّا كَانَ الموقف الإسرائيلي الرافض للمبادرة، وادِّعَاء إسرائيل بأَنَّهَا كَانَ يجب أنْ تُسْتَشَارَ بشأنها قبل صدورها، وطلب شارون حضور القمة لِهَذَا السبب وغيره مِنَ المناورات الإسرائيلية يقطع بأمرين : الأول : أنَّ العرب مُصِرُّونَ عَلَى السلام العادل ؛ بوصفه مسئولية يجب مساندتها مِنْ جانب المجتمع الدَوْلي ضِدَّ المجون السياسي والعسكري الإسرائيلي، والثاني : أنَّ إسرائيل تريد سلامًا خاصًّا يحقق مصالحها ويتجاهل حقوق الآخرين، وأنَّ القوة هِيَ معيار شرعية الحقوق، ولَيْسَ الاتفاق أوتوافق الإرادات .

ثانيًا – غموض الدعم العربي للانتفاضة، حَيْثُ جاء النص عَلَيْهَا فِي عبارات عامة، وهِيَ تأكيد الدعم الثابت "للشعب الفلسطيني"، وهِيَ صياغة أضعف بكثير مِنْ قرار قمة عمان، رغم

وضوح الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وتعسف إسرائيل وتوحشها، وتبلور الانتفاضة وبطولاتها، مُنْذُ قمة عمان .

كَمَا جاء النص عَلَى الإجراءات العربية ضِدَّ إسرائيل أملاً فِي إخضاعها لمنطق الشرعية فِي صياغة ضعيفة ـ ضعف الإجراءات نَفْسَهَا ـ مِمَّا يشي باتجاه القمة إلَى التهدئة لإبراز المبادرة دُونَ التركيز عَلَى إجراءات القسر. ومِنْ هَذِهِ الإجراءات : التوقف عَنْ إقامة أية علاقات مَعَ إسرائيل، وهِيَ أضعف مِنْ وقف الاتصالات السياسية الَّتي كَانَت لجنة المتابعة الوزارية قَد قررتها، فَضْلاً عَنْ تنشيط مكتب المقاطعة، وهِيَ تجربة ثبت عدم جديتها، وعدم اتجاه الإرادة الْحَقَّة نحوها .

والحق : أنَّ المبادرة العربية هَذِهِ المرة تختلف عَنْ قرارات مدريد فِي نقطة تُعَدُّ إغراء لإسرائيل، ذَلِكَ أنَّ السلام يجب أنْ يقوم بَيْنَ إسرائيل والدُّوَل الَّتي تنسحب مِنْ أراضيها، ولَكِن المبادرة مدت هَذِهِ الميزة لإسرائيل عَلَى الدُّوَل العربية الأخرى الَّتي لَيْسَت لَهَا أراضٍ مُحْتَلَّة .

فَهَل سقط العرض العربي بالرد العسكري الإسرائيلي ؟، وهَلْ يظل التلويح العربي بغصن الزيتون مشجعًا للاستعلاء الصهيوني ؟، وأخيرًا فَإِنَّ القمة حققت تقدمًا هامًّا عَلَى طريق المصالحة العراقية بسبب مرونة العراق ؛ مِمَّا دفع القمة إلَى اتخاذ قرار يؤيد العراق ضِدَّ احتمال ضربة أمريكية. صحيح أنَّ هَذَا الموقف لَنْ يغني عَنْ ضرب العراق إذَا قَرَّرَت واشنطن، لَكِنَّهُ أشاع روحًا جديدة، نأمل أنْ يدعمها الجميع ، خدمةً لِهَذَا الملف الحيوي .

٨ـ مؤتمر الدوحة :

حَتَّى لا يَكُون كبوة للتضامن العربي

اتَّخَذَ مؤتمر الدوحة المنعقد فِي منتصف نوفمبر الماضي منحنى خطيرًا عِنْدَمَا أصْبَحَ سببًا لانقسام العالم العربي بدلاً مِنْ دعم تضامنه، فِي وقت هُو فِيهِ أشد حاجة إلَى هَذَا التضامن. وبدلاً مِنْ أنْ تَكُون الدوحة مجرد مقر لاستضافة الدورة الرابعة، لِمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ القمة الاقتصادية للشرق الأوسط، صارت الدوحة رمزًا للخلافات والانقسامات العربية، ويرجع ذَلِكَ إلَى عدد مِنَ المضاعفات، جعلت مجرد اتِّخَاذ قرار بالمشاركة أوعدمه مِنَ المعضلات الْكُبْرَى المعقدة، وأهم هَذِهِ المضاعفات نرصد مِنْهَا مَا يلي :

أوَّلاً ـ حساسية قَطَر تجاه المؤتمر والمشاركة فِيهِ، فَقَد كَانَت قَطَر أعلى الدول الخليجية نبرة فِي الاتِّجَاه إلَى التطبيع مَعَ إسرائيل، وازداد إصرارها عَلَى هَذَا الخط وغيره مِنَ السياسات الخلافية تجاه إيران والعراق، مثلاً : كُلَّمَا واجهت نقدًا لموقفها، خاصة فِي الأسرة الخليجية، وحَيْثُ فسر البعض موقف قَطَر بأَنَّهُ رغبة فِي التمسك بخط مستقل مَهْمَا كَانَ مُنْتَقَدًا ومُخَالِفًا للخط العام لأعضاء مجلس التعاون الخليجي. ويَبْدُو أنَّ قَطَر قَد اعتبرت نقد المؤتمر أو مقاطعته موجهًا إلَيْهَا، فزاد ذَلِكَ مِنْ حساسيتها، وأصْبَحَ المؤتمر معركة ذَاتَ دلالات معينة بالنسبة لَهَا، رُبَّمَا تدفعها إلَى اتِّخَاذ قرارات متسرعة، مِثْل حظر دخول رعاياها بعض الدُّوَل الأخرى .

ثانيًا ـ استماتة إسرائيل والولايات المتحدة لعقد المؤتمر بأيّ ثمن، ولَيْسَ سرًا أنَّ واشنطن تبذل جهودًا خارقة لعقد المؤتمر ومشاركة الدُّوَل العربية فِيهِ، واتَّجَهَت جهودها إلَى ثلاثة مجالات : الأول — مجال الضغط الصريح المقترن أحيانًا بإيضاح فوائد المشاركة، وأهمها فِي حصاد العلاقات الأمريكية مَعَ الدُّوَل المشاركة، والمجال الثاني — إبراز تحرك واشنطن لتحقيق تقدم مَّا فِي عملية السلام الفلسطيني الإسرائيلي، ولَوكَانَ مفتعلاً وشكليًا ومرتبطًا مباشرة بتوقيت المؤتمر، وذَلِكَ حَتَّى تقنع الدُّوَل الَّتي علقت حضورها عَلَى تحقيق تقدم فِي عملية السلام، فيصبح عدم مشاركتها رغم تحقق هَذَا التقدم دلالة عَلَى التعنت وسوء القصد ؛ مِمَّا يفيد دوائر معينة تضرب عَلَى هَذَا الوتر وتعمقه، وينتهي لصالح إسرائيل. أمَّا المجال الثالث ـ فَهُو التركيز

عَلَى الخلاف العراقي مَعَ واشنطن والأمم المتحدة ، لتحقق هدفين عَلَى الأقل : الأول ـ صرف العالم العربي عَنْ تقييم "التقدم" فِي عملية السلام، والثاني – التذكير بخطورة العراق ، حَتَّى تدفع دُوَل الخليج عَلَى استخلاص مَا لِذَلِكَ مِنْ دلالة، أبرزها أنَّ العراق أخطر عَلَى أمنها مِنْ إسرائيل .

ثالثًا ـ أنَّ فريقًا مِنَ العالم العربي أعلن مُنْذُ البداية مقاطعته للمؤتمر ، مَا دامت تشارك فِيهِ إسرائيل، بَيْنَمَا علق فريق آخر مشاركته عَلَى تحقيق تقدم حقيقي فِي عملية السلام، واحتفظ فريق ثالث لنفسه بالقرار فِي اللحظة الأخيرة عَلَى ضوء مصالح الدَّوْلَة المعنية بالمشاركة أوالمقاطعة.

ولَمَّا اتضحت قسمات هَذِهِ الفرق عَلَى الساحة العربية اكتسب الاختلاف طابع الخلاف، خاصة بَعْدَ أنْ ارتفعت همسات تتهم المشاركين، إمَّا بالخضوع للضغط الأمريكي والإسرائيلي، أوبعدم احترام قرارات قمة القاهرة فِي يونيو١٩٩٦ م. أمَّا غَيْر المشاركين فَقَد اتهمهم غيرهم بعدم الجدية واستمرارهم فِي المواقف السلبية، وبشقّ الصف العربي، وتجاهل أهمية المؤتمر فِي الضغط عَلَى إسرائيل .

وأمام هَذَا الانقسام الحاد لَمْ يتمكن وزراء الخارجية العرب مِنَ اتِّخَاذ موقف محدد، بَلْ تركوا لكل دَوْلَة أنْ تقرر مَا تراه مناسبًا لَهَا. ولَمْ يغفل الناقدون للمعارضين لعقد المؤتمر، عَنْ حقيقة هامة، وهِيَ أنَّ مؤتمر القاهرة عام ١٩٩٦ م قَد علق حَتَّى آخر لحظة، ثُمَّ انعقد بمشاركة عربية واسعة، رغم أنَّ عملية السلام كَانَت أيْضًا تعاني مِنَ العثرات، ولِذَلِكَ فَقَد يخلص البعض إلَى أنَّ قرار المشاركة أوالمقاطعة لَيْسَ قائمًا تَمَامًا عَلَى مَدَى التقدم فِي عملية السلام، إنَّمَا تحكمه اعتبارات أُخْرَى أهمها مكان انعقاده، ورُبَّمَا أضاف ذَلِك إلَى الحساسية الَّتي تشعر بِهَا قَطَر .

رابعًا – أنَّ القمة الاقتصادية للشرق الأوسط هِيَ إحدى مؤسسات مدريد، مِثْلَمَا هُو الحال فِي اتِّفَاق واشنطن بَيْنَ إسرائيل والفلسطينيين، وأنَّ العملية السلمية بالتزاماتها وفوائدها لإسرائيل يجب ألاَّ تتجزَّأ، ولا يجوز أنْ تغفل إسرائيل التزاماتها السياسية، ثُمَّ تحرص عَلَى الحصول عَلَى المكاسب السياسية والاقتصادية، كَمَا لا يجوز أنْ يُشْعِرَ العرب إسرائيل أنَّهَا لا تقيم لَهُم وزنًا، ومَعَ ذلك تمضي فِي تطبيع وجودها وعلاقاتها فِي كنفهم، لمجرد رغبة واشنطن فِي ذَلِك.

والحق أنني لست متفقًا مَعَ مَنْ عارضوا المشاركة فِي الدوحة لأسباب أيديولوجية لوجود إسرائيل، كَمَا أنني لست متعاطفًا مَعَ أصحاب الرأي الَّذِي يخضع قرار المشاركة للكسب التجاري والاقتصادي ؛ لأنهم يعلمون أنَّ هُنَاكَ أُطُرًا أُخْرَى أكثر فائدة فِي المجالين التجاري والاقتصادي، وأبرزها إطار التعاون العربي – العربي، فإسرائيل هِيَ الَّتِي بحاجة إِلَى العرب، ولَيْسَ العكس، ولا يقلل مِنَ اهتمام إسرائيل وتعلقها بِهَذَا التجمع – تواضع مردوده المادي، أوتركيز العرب عَلَى جانبه الاقتصادي والتقليل مِنْ مردوده السياسي .

ولِذَلِكَ أعتقد أنَّ هُنَاكَ اعتبارين أساسيين يجب أخذهما فِي الحسبان فِي قرار المشاركة مِنْ عدمه : الاعتبار الأول : ضرورة إفهام إسرائيل أنَّ عقدة إسرائيل وعزلتها ستظل مَا لَمْ تقبل قواعد الاندماج فِي المنطقة بتنفيذ التزاماتها بدقة وإخلاص، والاعتبار الثاني : أنَّ اهتمام واشنطن بتحقيق تقدم فِي المسار الفلسطيني الإسرائيلي لتدفع بِهِ الدُّوَل العربية إِلَى المشاركة، يجب أخذه هُو الآخر فِي الحسبان، مَهْمَا كَانَ صغيرًا .

ولِذَلِكَ أقترح أنْ تشارك الدُّوَل العربية جميعًا (عَدَا سوريا ولبنان، اللتين لا تزالان خارج إطار مدريد رغم قبولهما بِكُلِّ إخلاص لعملية السلام)، وأنْ تخصص الجلسة الأولى للمؤتمر لدراسة مَدَى التقدم الَّذِي أحْرَزَ حَتَّى يومها فِي عملية السلام، والتأكيد عَلَى أنَّ عملية السلام والتطبيع ينبثقان مِنْ مدريد، وأنَّهُ لا يجوز أنْ تظل إسرائيل تجني ثمار السلام ولا ترفع أشواكه، مِثْلَمَا قال أجدادها لموسى كَمَا ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة المائدة – الآية ٢٤ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾، وحَتَّى لَو قَرَّرَت الدُّوَل العربية مقاطعة المؤتمر بِنَاءً عَلَى تقييم نتائج التقدم السياسي، تَكُون قَد أرضت قَطَر وتجاوبت مَعَ المساعي الأمريكية، ولَمْ تتخذ موقفًا مسبقًا، وتعاملت مَعَ المشكلة بشكل موضوعي، ولا شَكَّ سَيَكُون وقع الموقف العربي لَدَى الآخرين مدعاة للاحترام وإعلانًا بأَنَّ العرب يريدون السلام بِكُلِّ تبعاته، وأنَّ عزلهم لإسرائيل لَيْسَ نكوصًا عَنْ روح السلام وعودة إِلَى روح الصراع، ولَكِنَّهُ تعبير عَنْ جدية العرب ورفضهم للمماطلات والشعارات، وإصرارهم عَلَى التعامل مَعَ مدريد كَكُلٍّ لا يتجزأ .

٩ـ العالم العربي

ومخاطر خلط الأوراق فِي حمى مكافحة الإرهاب

رغم أنَّ الإرهاب يصيب مناطق العالم كُلَّ يوم، إلاَّ أنَّ الحمى لمقاومته بدأت عِنْدَمَا وصل إلَى الولايات المتحدة عَلَى النحو الَّذِي لا تخفى دلالاته فِي تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م، وقَد ارتبطت حمى تدويل الحملة ضِدَّ الإرهاب بسلوك وتشوهات وتصريحات تقطع بِأَنَّ هَذِهِ الحمى ستؤدي إلَى خلط الأوراق وتدمير العالم الإسلامي وإذلاله. ولِذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ السطور تحذير لزعماء العالم الإسلامي والعربي الَّذِي يبدون حرصهم عَلَى عدم التخلف عَنْ ركب الحملة الدولِيَّة، ولكنهم يجب أنْ يلحقوا بهَذِهِ الحملة، وهم عَلَى بصيرة بِأَنَّ مشاركتهم لَنْ تضر بقضاياهم. فالظاهر مِنَ الاتصالات المعلنة بَيْنَ الأطراف الدَوْلية المختلفة أنَّ المطالب الأمريكية واشتراطات التعاون وشروط الانضمام إلَى النادي الدَوْلي لمناهضة الإرهاب ستؤدي إلَى فوضى شاملة ووقيعة محققة بَيْنَ شعوب العالم الإسلامي وحكوماته، وإلَى تصفية القضايا الإسلامية بأيدي الحكومات الإسلامية نَفْسَهَا. ذَلِك أنَّ كُلَّ العناصر والمنظمات الَّتِي اشتركت فِي مناهضة إسرائيل عَلَى أي نحو يجب أنْ تسلم إلَى القوة الدَوْلية للتحالف ضِدَّ الإرهاب، أوأنْ تقوم الدُّوَل العنية بمحاكمتها تحت إشراف السلطة الجديدة، الَّتِي يَبْدُو أنَّ التحالف المنشود سَوْفَ ينشئها للإشراف عَلَى عملية تسلم العناصر المطلوبة ومحاكمتها، رُبَّمَا فِي هيئات قضائية دولِيَّة خاصة أشبه بمحاكم "نورمبرج وطوكيو"، ويتضح مِنْ هَذَا المطلب أنَّ إسرائيل قَد أبعدت عمدًا عَنِ التحالف ؛ حَتَّى لا يستفز انضمامها العالم الإسلامي، مقابل أنْ تَكُون مصالح إسرائيل بَلْ وأيديها وراء كُلَّ تصرفات التحالف، وفِي ذَلِك مصلحة مشتركة للولايات المتحدة ولإسرائيل، لا تحلم الدَّوْلَتَان بتحقيقهما لَو هدأت الحمى الَّتِي تغذيها كُلَّ يوم الأوساط الصهيونية .

فَإِذَا تحقق هَذَا المخطط ؛ فسوف يطلب مِنْ لبنان وسوريا أنْ تسلم أوتحاكم زعماء حزب الله وغيره، وزعماء المنظمات الفلسطينية، وأنَّ عدم التسليم أوالمحاكمة سَوْفَ يعني أنَّ انضمامها إلَى التحالف لا معنى لَهُ، بَلْ ويعرضها لقرارات العقاب مِنْ هَذَا التحالف، وسَوْفَ يَكُون صعبًا

فِي المرحلة المقبلة بالنسبة لحكومتي البلدين الإعلان عَنْ أنَّ هَذِهِ الزعامات اشتركت فِي أعمال تتصل بالتحرز مِنَ الاستعمار الصهيوني، كَمَا لَنْ يجدي نفعًا المطالبة مقابل تعاونهما بأَنْ تسلم إسرائيل زعماءها الَّذِي اجتهدوا مَا وسعهم الجهد فِي إبادة العرب جميعًا فِي لبنان ومصر وفلسطين، وغيرها، وتفاخرهم بأَنَّ أعمالهم تضعهم فِي سجل المجد الصهيوني الَّذِي لا يجرؤ أحد عَلَى تجريمه باعتباره أكبر مشروع إجرامي عرفته البشرية طوال التاريخ .

هَذِهِ العقدة الأولى فِي المنطقة العربية يجب أنْ يبادر العرب والمسلمون إلَى حسمها، وألاَّ يدخلوا تحالفًا غامضًا لا تحركهم إلَيْهِ سِوَى حالة الحمى الَّتِي تشيعها الولايات المتحدة، بسبب مَا حدث لَهَا. وكَأَنَّ الدم الأمريكي أزْكَى مِنْ دماء الشعوب الأخرى الَّتِي قاست ويلات الإرهاب الحقيقي.

ورُبَّمَا كَانَ مِنْ أهداف الرئيس " مبارك " ومحاولة ربطه بَيْنَ نجاح الحملة ضِدَّ الإرهاب وبَيْنَ تسوية هَذِهِ المشكلة أن تسقط عَلَى الجانبين الإسرائيلي والعربي الدعاوى المتقابلة، وإنْ كنت أعتقد شخصيًّا أنَّ العالم العربي لابُدَّ أنْ يفرق بَيْنَ التسوية، وهِيَ عملية سياسية، وبَيْنَ تعقب المجرمين الإسرائيليين الَّذِينَ أمِنُوا إلَى إفلاتهم مِنَ العقاب، فاستباحوا كُلَّ شيء دُونَ خوف أو وجل أوحَتَّى بقية مِنْ ضمير .

أمَّا العقدة الثانية الَّتِي يجب أنْ تكُون محل اهتمام المؤتمرات العربية والإسلامية، فَهِيَ أنَّ التصريحات والتصرفات المعادية للسلام والمسلمين فِي الغرب تكشف عَنْ أحقاد تاريخية متراكمة لا يجدي مَعَهَا التصريحات المقابلة المدفوعة بدوافع سياسية مؤقتة، وأنَّ تصفية هَذِهِ المسائل لا يُمْكِن أنْ تَتِم عَنْ طريق مجرد التأكيد أنَّ الإسلام بريء مِنَ الإرهاب،والحض عَلَيْهِ أو أنَّ المسلمين فِي الدُّوَل غَيْر الإسلامية لا علاقة لَهُم بِمَا حدث للولايات المتحدة، بَلْ إنَّ الحل المتصور هُو بحث هَذِهِ القضية عَلَى مستوى الحكومات الإسلامية والغربية بِكُلِّ وضوح، والاتفاق عَلَى خطوط تمنع انفجار الفتنة بَيْنَ المسلمين والغرب، والتأكيد أنَّ للمسلمين فِي الغرب حقوق المواطنة وفْق قوانين بلادهم. وأنَّ فرزهم عَلَى أساس الدين عودة إلَى العنصرية الَّتِي لا يجوز إطلاق العنان لَهَا أوالتهوين مِنْ مخاطرها وآثارها عَلَى العلاقات الإسلامية مَعَ الغرب. بَلْ إنَّ

هَذِهِ القضية بِالذَّاتِ يُمْكِن أنْ تشعل سلسلة الإرهاب عَلَى أساس المظالم الَّتِي يتعرض لَهَا المواطن المسلم فِي بلده الغربي الَّذِي تميز قوانينه ضده ولا يحميه نظامها الديمقراطي .

أمَّا المعضلة الثالثة الَّتِي يجب أنْ يتصدى لَهَا المسلمون فَهِيَ القضايا الإسلامية الشائكة الَّتِي توشك أوراقها أنْ تختلط فِي الصفقة الدَوْلية ضِدَّ الإرهاب . ونخص مِنْ هَذِهِ القضايا ثلاثًا ، برزت خلال التفاهمات الَّتِي تَتِم بَيْنَ الدُّوَل الأُورُبِّيَّة والولايات المتحدة والدُّوَل الإسلامية. أولى هَذِهِ القضايا الثلاث قضية " كشمير "، ودُونَ دخول فِي تعقيداتها، يَكْفِي أنْ نشير إلَى أنَّهَا فِي إطار المؤتمر الإسلامي قضية إسلامية، وأنَّ الجهد الإسلامي ينصرف إلَى محاولة تسويتها. وتقطع قرارات القمم الإسلامية والمؤتمرات الوزارية مُنْذُ عام ١٩٩٢ م بالتزام العالم الإسلامي بدعم سكان " كشمير " عَلَى العمل عَلَى تقرير مصيرهم، والوقوف ضِدَّ طغيان الهند فِي كشمير وارتكازها عَلَى القوة وحدها فِي قمع طلاب الحق فِيهَا . ونعلم أيْضًا أنَّ القضية فِي كُلِّ مِنَ الهند وباكستان تتمتع بأولوية لا جدال فِيهَا، وأنَّهَا تسببت فِي كُلّ الحروب والأزمات والتوترات بَيْنَ البلدين، ونعلم كَذَلِكَ أنَّ الهند – الَّتِي تتعاون مَعَ إسرائيل نوويًّا، ويعملان عَلَى جهة مشتركة ضِدَّ باكستان، مستهدفين مَعًا قنبلة باكستان النووية، درع الأمان الوحيد ضِدَّ تفوق الهند العسكري – قَد بادرت مُنْذُ اللحظة الأولى للتنسيق مَعَ إسرائيل لتحقيق الهدف المشترك الآخر، وهُو ضرب مَا أسموه بالإرهاب فِي كشمير، ومطلوب مِنَ العالم الإسلامي البت فِي هَذِهِ القضية الخطيرة، وألاَّ تترك باكستان وحدها تحت كُلّ الضغوط الَّتِي تتعرض لَهَا مِنْ كُلّ صوب، ولَيْسَ مِنَ المصلحة أنْ تقع حكومتها ومجتمعها عَلَى خط النار الوهمي مَعَ أفغانستان، ولابُدَّ للعالم الإسلامي مِنْ أنْ يحلل فِي شجاعة مَعَ باكستان مَا يجب عمله فِي هَذِهِ الظروف الدقيقة .

أما المعضلة الأخرى، والَّتِي لا تُخْفِي إسرائيل مصلحتها فِيهَا، وتنسيقها بشأنها مَعَ روسيا، فَهِيَ قضية " الشيشان "، وقَد صمدت الشيشان ضِدَّ البطش الروسي الَّذِي لَمْ يتوقف، والَّذِي يدينه الغرب نفسه، ويسكت عَنْهُ العالم الإسلامي، رغم التفاوت التام بَيْنَ قدرات الشيشان وقدرات روسيا. وقَد دخلت روسيا التحالف الدَوْلِي أساسًا مِنْ أجل أنْ يقوم التحالف بتصفية

(الإرهاب الشيشاني). ونَحْنُ نعلم قطعًا لِمَاذَا سكت العالم الإسلامي عَنِ الشيشان رغم أنَّ الدعوة بنصرهم تتردد فِي كُلِّ صلاة فِي المساجد، عَلَى امْتِدَادِ المعمورة وتعتبر الشعوب الإسلامية أنَّ المقاتلين فِي الشيشان " مجاهدين " لَهُم النصر أوالشهادة .

ونأمل أنْ يجد العالم الإسلامي – لاعتبارات سياسية ومصلحية بحتة – القدرة عَلَى مواجهة هَذِهِ المعضلة عَلَى الأقل مَا دامت إسرائيل تجاهر بتحالفها مَعَ الروس ضِدَّ الشيشان وتُسَوِّي بَيْنَ (الإرهاب الشيشاني) و(الإرهاب الفلسطيني)، وتجد مَنْ يستمع لَهَا فِي روسيا وفِي غيرها. كَمَا لا تجد مَنْ يجرؤ فِي العالم الإسلامي عَلَى تحديها ودحض افترائها، والتأكيد عَلَى طبيعة الإرهاب الإسرائيلي والإرهاب الروسي عَلَى السواء .

وأخيرًا فَإِنَّ غياب العالم الإسلامي عَنْ قضية كوسوفا وحضوره فِي قضية البوسنة لَهُ ظروف خاصة، ولَكِن الثابت فِي الحالين أنَّ نصرة المسلمين فِي البلدين تمت عَلَى أيدي مجموعات إسلامية ارتبط نشاط بعضهم بأعمال إرهابية حقيقية فِي بعض الدُّوَل الإسلامية، تجدُّ مُنْذُ ذَلِكَ الوقت فِي طلبهم للمحاكمة أوالعقوبة، وكَانَ التعاون بَيْنَ هَذِهِ الدُّوَل والدُّوَل الغربية مساحة للود لاتحاد المصلحة. هَذِهِ القضية المعقدة تحتاج هِيَ الأخرى إلَى تسوية إسلامية عاجلة، واتِّفَاق عَلَى الخط الَّذِي يجب التزامه فِيهَا ؛ حَتَّى لا يَكُون أحد مفجرات الفتنة، وأنْ يؤخذ فِي الاعتبار عوامل عديدة عِنْدَ النظر فِي هَذِهِ التسوية .

تِلْكَ هِيَ القضايا العاجلة والمتفجرة الَّتِي أعتقد أنَّ العالم الإسلامي مطالب بسرعة معالجتها والاتفاق عَلَى حلول لَهَا حَتَّى لا ينجرف إلَى تحالف يفجر الفتنة بَيْنَ المسلمين والغرب، وبَيْنَ المسلمين وحكامهم، وتشيع الفوضى فِي العالم الإسلامي، وفِي علاقات المسلمين الخارجية، ويعطل الهدف النبيل الَّذِي رفعه التحالف، وهُو مكافحة الإرهاب .

إنَّ التحالف الَّذِي يستهدف تصفية الحسابات عَلَى حساب القانون، والَّذِي تقف خلفه الصهيونية العالمية سَوْفَ ينذر بكارثة للعالم أجمع، ولِذَلِكَ آمل أنْ يدقق المسلمون فِيمَا هم بصدده، وأنْ يتدبروا أمرهم بأنفسهم بعيدًا عَنِ الحمى العالمية الَّتِي أشاعتها واشنطن والإرهاب النفسي الَّذِي تمارسه عَلَى العالم كله، وخلطها بَيْنَ التعاطف مَعَ محنتها وبَيْنَ تحميل العالم كله وزر مَا حل بهَا والزج بِهِ فِي حملة عمياء تلحق الأذى بالجميع .

١٠ـ نحو إطار جديد للعلاقات العربية الإسرائيلية بعد التسوية السياسية

من المسائل التي تلقى الاهتمام المتزايد منذ مدة هي تلك المتصلة بشكل العلاقات في المنطقة العربية بعد انتهاء التسوية السياسية المعروفة بعملية السلام والتي بدأت بمؤتمر مدريد عام ١٩٩١ والتي أثارت جدلاً يتصل في الغالب بالتصور المنطلق من فرضيات قائمة.

وهذه المقالة تهدف إلى تقديم رؤية جديدة متحررة من قيود النظر التقليدية التي حكمت التصورات المختلفة حتى هذه اللحظة. ولتفصيل ذلك نشير إلى أن عملية السلام قد أطلقت مسارين أحيانًا متوازيين وهما المسار الثنائي أي بين إسرائيل من ناحية وكل من الفلسطينيين ثم سوريا ولبنان من ناحية أخرى، وهدفها مقايضة انسحاب إسرائيل من أراضي الأطراف العربية مقابل قيام هذه الأطراف بتطبيع علاقاتها مع إسرائيل في إطار عدد من الترتيبات يتأثر بالضرورة بوضع إسرائيل وقوتها النسبية مع إدراكنا لعناصر هذه القوة في هذه اللحظة. أما المسار الثاني فهو متعدد الأطراف الذي يفترض أن تكون له وظيفتان. الوظيفة الأولى معلنة وهي دخول أطراف غير عربية مع الأطراف العربية المعنية في مفاوضات حول الموضوعات التي تتجاوز في أهميتها المسار الثنائي والتي يتصل الاهتمام بها بأكثر من دولة إقليمية أوخارج الإقليم أملاً في مساعدة هذه الأخيرة ـ أي الدول الخارجية ـ لدول المنطقة في تسوية هذه القضايا وتقديم العون اللازم للترتيبات التي قد يتفق عليها في إطار هذه التسوية. وأما الهدف غير المعلن فهو أن تحاول إسرائيل الالتفاف على المسار الثنائي عن طريق غلبة المسار المتعدد بحيث يؤدي اندماج الأطراف العربية مع إسرائيل في هذا المسار إلى أن يألف العالم ذلك كما تألفه الأطراف العربية مما يجعل إسرائيل مقبولة حتى دون حاجة إلى تسوية المسار الثنائي بالشكل المرضي.

ولاشك أن الجانب العربي قد رحب بالمسار المتعدد لاعتبار مختلف، وهو الأمل في إشراك الأطراف غير العربية في التسوية مما يشكل تدويلاً للمشكلة، فتنحاز الأطراف غير العربية إلى الحق، وتصبح حكما تتجاوز عدالته العدالة الأمريكية الجريحة في معظم الأحيان. ولسنا بحاجة

إلى أن ننكر أن إسرائيل قد حاولت أن تجمد المسار الثنائي وأن تنشط المسار المتعدد، بينما أصر العالم العربي على أن يرتبط المساران ويتلازما معًا على أساس أن المسار المتعدد يجب أن يكون إحدى ثمار تنشيط المسار الثنائي، وعلى افتراض أن المسار الثنائي هو جوهر عملية السلام بينما المسار المتعدد هو جوهر عملية التعاون الذي يمكن أن يحمي دائرة السلام ويقدم لها الضمان والاستمرار عن طريق خلق المصالح المشتركة ونسيان عقود الصراع والحرب والدمار.

وغني عن البيان في هذا المقام أن كلاً من المسارين الثنائي والمتعدد يقوم على فرضية أساسية وهي قرارات مجلس الأمن ذات الصلة على أساس الشرعية الدولية المعترف بها من الجانبين دون الدخول في اللجاجة حول التفسيرات المتناقضة العربية والإسرائيلية لهذه القرارات، لأن صيغة الأرض مقابل السلام قاطعة في الوضوح مع التسليم من جانب إسرائيل بأن قوة إسرائيل وعلاقاتها الخارجية يمكن أن تجعل لهذه الصيغة تطبيقًا مناسبًا لتصوراتها ومصالحها.

والحق أن صيغة المسار المتعدد أدت إلى إنشاء نظام يكون فيه لإسرائيل مكان يتجاوز التقسيمات الجغرافية للمنطقة. وعند هذه النقطة فقد طرح الجانبان الإسرائيلي والأمريكي فكرة الشرق أوسطية لتكون نظامًا بديلاً لمرحلة الحرب الإسرائيلية العربية التي يجب أن تضع لها عملية السلام نهاية منطقية. وقد أدت فكرة الشرق أوسطية إلى إثارة الفريق القومي الذي يتمسك بالعمل العربي المشترك، ثم دارت المناقشات والمجادلات والمساجلات بين النظامين العربي والشرق أوسطي مما ترك انطباعا في الجانب الإسرائيلي مؤداه أن تمسك العالم العربي بهويته القوميه هو دليل على إصراره على استمرار سنوات الصراع وروح العداء والرفض المستمر لإسرائيل أكثر من رفضه لسياساتها. أما في الجانب العربي، فإن فكرة الشرق أوسطية تعني القضاء على العمل العربي المشترك وإنشاء نظام خاص لإسرائيل يتم من خلاله وضعها في موضع خاص بعد إبرام اتفاقيات السلام بينها وبين العالم العربي.

تلك إذن هي الخطوط الأساسية للجدل منذ مدة، وهي أيضا الخطوط التي تحكم التصورات المختلفة التي تظهر الآن حول شكل المنطقة والعلاقات فيما بعد السلام. ولكننا نتصور أن عملية السلام عمليه مغلقة هدفها إزالة أسباب التوتر والصراع وذلك بالاعتراف بوجود إسرائيل ضمن

حدود معينة هي الحدود الدولية السابقة على قيام إسرائيل. صحيح أن عملية السلام تعالج قضايا الصراع كما تضع الأسس المناسبة لعلاقات المستقبل القائمة على العلاقات السلمية وليس بالضرورة العلاقات الودية، إلا أن عملية السلام لا يجوز أن تفرض على الدول العربية صيغة معينه تكبلها بنظام يجبرها على نمط معين من التعاملات بينها وبين إسرائيل. فإذا سويت المشاكل بينها وبين إسرائيل خلال عملية السلام فإن مرحلة التعاون يجب أن تترك دون أن تلزم الدول العربية بإطار حديدي من خارج المنطقة هو النظام الشرق أوسطي الذي بشر به بيريز وزاده إيضاحًا في تصريحاته الأخيرة بأن إسرائيل في إطار هذا النظام ستكون قاطرة لبيئة "قذرة" وليست مضطرة إلى الاندماج فيها بسبب الاختلاف النوعي بين إسرائيل وجيرانها ولكن الأقدار تجبر إسرائيل على قيادة هذه المنطقة نحومدارج الحضارة الحديثة.

ويتميز النظام المفتوح المقترح بعدد من المزايا منها أن الدول العربية التي لم تحتل أراضيها ليست مجبرة على إبرام اتفاقيات سلام مع إسرائيل وإنما يكفي أن تصدر الجامعة العربية على أي مستوى حتى على مستوى الأمين العام بعد إتمام التسوية السياسية بيانًا يرحب بعودة الأراضي العربية إلى أصحابها وأن يترك الباب مفتوحًا أمام أعضاء الجامعة لكي تقرر بنفسها شكل علاقاتها بإسرائيل. ويسمح هذا النظام المقترح بإحياء النظام العربي وازدهار الفكر القومي الذي اعتبر الاستعمار والصهيونية معرقلاً لازدهاره وليس سببًا في هذا الازدهار.

ولاشك أن ازدهار الفكر والشعور القوميين في العالم العربي سوف يعوض أثر العولمة السلبي على الاتجاهات القومية والإقليمية، على أن يظل مفهومًا أن إحياء الإطار العربي ودعمه ليس عودة إلى الحرب الباردة أو الساحة العربية إسرائيلية، ذلك أن إحدى فرضيات إحياء هذا العمل المشترك تقوم على أن إسرائيل لم تعد قضية تهدد الوجود العربي بل إن معيار التفاضل بين النظام الإسرائيلي والنظم العربية هو كفاءة هذه النظم وحيويتها وإنهاض مجتمعاتها وقدرتها على اللحاق بأساليب العصر والاندماج الصحي في النظام الدولي. وسوف تظل قدرة هذه النظم على تنمية قدرات الأفراد واحترام حقوقها وتحديث أدوات التعامل معهم هوعنوان كفاءتها،

وحينئذ يصبح التنافس بين إسرائيل والنظم العربية لصالح شعوبهما ولتحقيق النموذج الذي تطمح إليه هذه الشعوب، هوأساس التفاضل بينهما.

فهل الصورة وردية إلى هذا الحد أم أن حرص إسرائيل على التسيد في المنطقة واستقلال تناقضاتها وخلق تناقضات جديدة سوف تطرح نمطًا جديدًا من العلاقات التي لا يمكن لأي محلل مهما دقت حساباته أن يتكهن بها؟ أيًا كان الأمر فإن كل شيء سوف يعتمد على سلوك إسرائيل أولاً وأخيرًا.

١١ـ القضية الفلسطينية
وخدعة الشريف حسين

لايشك أحد في أن القضية الفلسطينية منذ أن أصبحت في عداد قضايا المنطقة قد أصبحت من أهم شواغل العالم العربى، وارتبط مصيره ونمط حياته بتطورات هذه القضية والأبعاد التى اكتسبتها بحيث يمكن القول إن تاريخ العالم العربى خلال النصف الثانى من القرن العشرين هو نفسه تاريخ القضية الفلسطينية، وأن الوجه الآخر لهذا التاريخ الآخير هوالصراع العربى الإسرائيلى.

اتسمت القضية الفلسطينية طوال تاريخها بالعديد من السمات أهمها أنها تشابكت بمختلف القضايا العربية تشابكًا لايقبل الفكاك، كما أنها ارتبطت بشكل أوبآخر بمصائر ومقدرات دول معينة، إنما الذى يهمنا من هذه السمات هو أن هذه القضية كانت موضوعًا للمقايضة، أوالمساومة أوالمتاجرة أحيانًا وكان ذلك يعتمد دائمًا على موضوع القضية.

فعندما كان موضوع القضية هوضرورة وقف الهجرة اليهودية والثورة لتحقيق هذا الغرض كان سعي الغرب لتوسيط الحكام العرب لوقف الثورة مقابل وقف الهجرة التى كانت تزداد تدفقًا مع كل التدخلات.

وعندما احتل العراق الكويت عام ١٩٩٠ دخلت القضية الفلسطينية فى نفق جديد فى سياق هذا التحليل، وأصبحت موضوعًا للمزايدة والمساومة. ذلك أن العراق أوهم العالم العربى المتعطش إلى تقدم في حل القضية سلمًا أوحربًا، وإلى أى بطولة فى مواجهة إسرائيل بأن احتلال الكويت خطوة ضرورية لإعلان الزحف الأكبر لتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيونى بعد أن خاض العراق موقعة " القادسية " ضد إيران.

وفى مرحلة تالية اشترط العراق ـ لكى ينسحب من الكويت ـ أن تنسحب إسرائيل من فلسطين، ومن كل فلسطين إن أمكن. وكان معنى ذلك أنه مادامت إسرائيل لن تجلو عن الأراضى الفلسطينية المحتلة، ناهيك عن الرحيل عن كل فلسطين، فإن العراق سيبقى فى

الكويت مابقيت إسرائيل فى فلسطين، مما يشير إلى نية العراق فى البقاء الدائم وأن ربط الانسحاب من الكويت بانسحاب إسرائيل من فلسطين قصد به مداعبة الآمال العربية التى أحبطها أن تضاف الكويت إلى فلسطين فى المآساة حتى لوكان المحتل عربيًا يرفع شعار القومية والتقدم.

وفى حلقة ثالثة أدرك الرئيس جورج بوش الأب هذه اللعبة، وأن فلسطين هى كلمة السر وأن العرب يتلهفون على أى تطور فى هذه القضية المركزية. ولذلك لعب الرئيس بوش لعبة بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى عندما طلبت بريطانيا من الشريف حسين أمير الحجاز أن يعلن الحرب على تركيا وأن ينضم إلى صفوف الحلفاء إذا كان يطمح حقًا فى تحرير الجزيرة العربية وفى أن يكون أمير العرب. وقد داعبه هذا الحلم طويلاً طوال المحادثات الشهيرة بينه وبين ماك ماهون المعتمد السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت، ولأكثر من عامين كان الوعد البريطانى خلال هذه المحادثات أوضح وأقوى بكثير من وعد بلفور نفسه، ولم يدرك الأمير المخدوع أن بريطانيا ترتب لخلعه وإقصائه من منصبه. وكانت النتيجة أن أعلن الشريف الحرب على تركيا برغم كل المحاذير باعتبارها دولة إسلامية، وأنه ينتمى بنسبه إلى آل البيت وأن الطابع الإسلامى فى حكمه هوالأكثر ظهورًا بوصفه حاكمًا للأماكن المقدسة الإسلامية فى مكة والمدينة.

وهكذا وعى بوش الأب الدرس ولم يُقدّر للعرب أن يعوا دلالاته، عندما أعلن الرئيس بوش أن مكافأة الاشتراك فى التحالف الدولى ضد العراق سوف تكون جاهزة بعد التحرير وهى جلب السلام إلى المنطقة دون أن يحدد نوع السلام المطلوب ودون أن يحدد أيضًا الخطوط الأساسية التى تتحرك عليها المفاوضات.

وإذا كان البعض يرى أن مؤتمر مدريد هو مكافأة بوش الأب على اشتراك العرب جميعًا تقريبًا فى التحالف ضد العراق، فإننا نرى أن هذا المؤتمر هوالحصاد المر للمعادلة المعقدة فى عملية غزو وتحرير الكويت، ولذلك فإن النتيجة المنطقية والتى تنسجم مع الكرامة العربية يجب أن تعاد صياغتها على نحويؤدى إلى القول بأن العالم العربى الذى استنكر الغزو وتمنى

على العراق أن ينسحب سلمًا وجد من واجبه أن يكون فى طليعة الحملة الدولية لتحرير العراق. ومادام العالم العربى ليس الطرف الوحيد في التحالف، فقد كان طبيعيًا أن تضع الولايات المتحدة المزايا التى تراها مكافئة لقيادتها لهذا التحالف، وهى مزايا تناقض بطبيعتها المصالح العربية. ومؤدى مَا تقدم أن العرب لم يشتركوا فى التحالف الدولى ضد العراق فقط جريًا وراء سراب السلام الذى لوحت به واشنطن فى سماء الشرق الأوسط المظلمة حتى يمكن أن يشتركوا فى التحالف مقابل السلام فى فلسطين على يد واشنطن، وبحيث يكون هذا المقابل من واشنطن نفسها، وإنما يجب أن يكون الإسهام العربى فى التحالف مستهدفًا تحرير الكويت ورد الطرف المعتدى.

أما الفصل الخامس من مأساة فلسطين فقد شاهدناه بمناسبة الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب وهوالعنوان الذى أطلقته واشنطن على التجريدة العسكرية الأمريكية ضد أفغانستان. وفى هذا الفصل المأساوى بذاته تم الربط مرة أخرى مع فلسطين، فمن ناحية، أقسم بن لادن أن الولايات المتحدة لن تنعم بالأمن مادام الأمن مفقودًا فى فلسطين. ومن ناحية أخرى، ظهر اتجاه فى الولايات المتحدة وبريطانيا بالتلويح بإمكانية إحلال السلام وإقامة دولة فلسطينية والعودة إلى مائدة المفاوضات. وهذه المصطلحات الثلاثة فى ظروف إبادة الشعب الفلسسطينى تمثل طوق النجاة للفلسطينيين، وللعالم العربى الذى يشعر بالحرج وهو يشهد أسوأ فصول الإبادة على يد إسرائيل. ولكن المشكلة أن الولايات المتحدة وبريطانيا وهما يدركان جيدًا حاجة الفلسطينيين العرب إلى تحقيق هذه الآمال الثلاثة قد هدفت إلى أن يكون العرب صفًا واحدًا فى الحملة الأمريكية على أن يكون المقابل هو جلب السلام إلى فلسطين.

ولكن يبدو أن السلام على النحو الذى يريده العرب لايزال بعيد المنال وأن على العرب أن يقبلوا بأن اشتراكهم فى الحملة الأمريكية التى لا ناقة لهم فيها ولاجمل، بل وتعرضهم إلى ضغوط شعوبهم لن تسفر عن قيام الدولة الفلسطينية، أو عن استئناف عملية السلام على النحو الذى يجعل شهداء الانتفاضة ورقة سياسية عندما تستأنف المفاوضات، ويفوت على إسرائيل فرصة استئناف المفاوضات عند نقطة تكون فيها قد أسكتت الصوت الفلسطينى وقضت على

جيل من رموزه وأطفأت جذوة الانتفاضة بأساليب عملية وليس بقرار من جانب السلطة الفلسطينية. ومعنى ذلك أن برنامج الإبادة الإسرائيلي سوف يمضي إلى غايته صوب الرهان الكبير الذى أطلقه شارون، وعلى الجانب الآخر سوف تستمر التلميحات الأمريكية والبريطانية التى تتلاعب بآمال الفلسطينيين دون أن تتخذ شكل التدخل الحاسم لوقف الإبادة أولاً ثم لبحث ترتيبات الانسحاب الإسرائيلي؛ لأن مفاوضات السلام فى المرحلة المقبلة من الجانب الفلسطيني يجب أن يكون لها موضوع واحد هو توقيت هذه الترتيبات وليس الدخول فى الجدل العقيم أو الأجندة الإسرائيلية التى سوف تفرضها بعد أن يكتمل برنامج الإبادة.

ويترتب على ماتقدم أن البرنامج الإسرائيلى الذى يلقى تفهمًا " أمريكا وبريطانيا " سوف يمضي في جانب بينما تمضى التصريحات الأمريكية والبريطانية المتقنة الصياغة فى جانب آخر، وهى تتضمن بطبيعة الحال مظاهر التفهم للإبادة الإسرائيلية والتجني على الفلسطينيين.

صحيح أن تصريحات وزير الخارجية الأمريكى فى ٢٠٠١/١١/٢٠ تتضمن بعض العبارات التى تمنى الفلسطينيون سماعها من واشنطن ولكن هذه العبارات جاءت فى سياق " رؤية " وليس فى سياق مبادرة متكاملة.

وأخيرًا، وحتى لا يظل العرب معلقين بآمال واهمة تأتيهم من هنا وهناك، فإن الحق أن السلام العادل والدائم لن يتحقق إلا إذا شعرت واشنطن ولندن بأن برنامج شارون قد فشل وأن إرادة الشعب الفلسطيني أقوى من دباباته وطائراته، وأن شهداء الانتفاضة هم وقود هذه الرسالة.

ويقتضى الإنصاف فى الختام أن أقول إن إسرائيل قد تهيأت لها ظروف مثالية ولن تعتدل الكفة مالم يكن العالم العربى جزءاً من المعادلة، وأن تقتنع إسرائيل بأن إبادة الشعب الفلسطينى ليست أمرًا مستباحًا بلا ثمن، ولكن يبقى أن نقول إن تصميم الشعب الفلسطينى من خلال الانتفاضة رغم خسائره الفادحة والضائقة المحكمة التى فرضتها عليه إسرائيل سيظل تذكارًا لإسرائيل بأنها دخيلة على هذه المنطقة، وأن أصحاب الحق هم الذين يدفنون فى أرضهم لتنبت

مكان أجسادهم أزهار الصبار رمزًا لمحطة هامة فى تاريخ الصراع الممتد بـين المغتصب وصاحب الحق.

ومع تقديرنا للتفسيرات المتباينة " لرؤية " وزير الخارجية الأمريكى والتى تتجه عمومًا نحو تشجيع الولايات المتحدة على مزيد من الإهتمام بالقضية ومحاولة تشجيعها على التقدم ببرنامج شامل للتسوية دون التعرض لنقد هذه الرؤية، بل إن هذه التفسيرات الرسمية قد افترضت أن عدم اكتراث إسرائيل بالموقف الأمريكى يعد رغبة منها فى مناهضة السياسة الأمريكية مِمَّا يتعين على العالم العربى أن يساند السياسة الأمريكية كما يساند الوقيعة بين واشنطن وتل أبيب. ونحن نرى على خلاف مَا يرى بعض الرسميين العرب أن واشنطن تحاول أن تربط للمرة السادسة بين فلسطين والعراق بشكل مناقض لما سبق أن قرره الرئيس صدام حسين خلال أزمة ٩٠ ـ ١٩٩١. ويبدو لنا أن واشنطن التى تلوح بأن العراق هو المحطة التالية فى مكافحة الإرهاب فى الوقت الذى تلوح فيه بأهمية استئناف المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية وربما السورية الإسرائيلية؛ وذلك حتى توهم العالم العربى بأن سكوته على ضرب العراق يمكن أن يكون حافزًا لواشنطن على دفع مسيرة السلام.

ولا أظن أن واشنطن بهذا القدر من الحرص على السلام العربى الإسرائيلى إلاَّ بقدر مَا يكون السلام ضروريًا لإسرائيل ولذلك يجب ألاَّ يشترى العالم العربى الوهم الأمريكى وأن يرتكب خطأً جديدًا بالسكوت على ضرب العراق جريًا وراء سراب، فليست فلسطين أعز لدينا من العراق وليس الخيار بينهما واردًا فى الاستنتاج العلمى الصحيح.

١٢ـ المقاومة الفلسطينية
بين المؤامرة الإسرائيلية والارتباك العربى

الظاهر للعيان أن انتفاضة الأقصى تعمل فى ظروف بالغة الصعوبة، لا أظن أن حركة تحرر وطنى غيرها فى كل تاريخ حركات التحرر الوطنى قد عايشتها أوواجهتها، سواء بسبب شراسة العدو الذى تواجهه وبربريته، أوبسبب قوته الطاغية التى هزمت جيوش الدول المجاورة، وإمكانياتها الهائلة، أوبسبب النجاح الدبلوماسى الساحق الذى حققته إسرائيل فى مواجهة العجز العربى عن الفعل، والفشل العربى على كل المستويات الدبلوماسية والإعلامية على الأقل، مما ترتب عليه أن أصبحت أوربا والولايات المتحدة فى خندق إسرائيل ضد المقاومة الفلسطينية، وما ترتب عليه، من ناحية أخرى، انقسام الصف الفلسطينى ووضع السلطة بين مطرقة إسرائيل والضغوط الدولية وسندان الشارع الفلسطينى. ومن مظاهر صعوبة ظروف الانتفاضة الجوانب الجغرافية والاستراتيجية للأراضى الفلسطينية، ومعرفة إسرائيل بتفاصيل أراضي تحتلها وتخطط لمستقبلها منذ عام ١٩٦٧ م ،فضلاً عن سكون الموقف العربى، بل والأدهى من ذلك ظهور بعض التحديات الأيديولوجية والسياسية التى لا نظن أن المقاومة الفلسطينية تحتمل ترف التعامل معها.

وأول **هذه التحديات** هو ذلك التناقض بين القرارات العربية المؤيدة للانتفاضة وحالة التخلص الواضحة والتنصل منها مما زاد فى شراسة إسرائيل وانفرادها بهذه الضحية الجائعة البائسة المحاصرة العزلاء، فأعملت فى فلسطين تدميرًا وقتلاً واغتيالاً وخطفًا وإذلالاً بلغ حد تحديد إقامة عرفات، وهى آمنة سعيدة بهذه الفريسة بعد أن أمنت الدعم الدبلوماسى والإعلامى المطلوب عالميًا فأطلق العالم يدها لترتب الأوضاع على الأرض على النحو الذى تشاء. وتعلم إسرائيل علم اليقين أن عرفات لن يخلصه عرب أوعجم، كما لن يخلصه من براثنها ما قد يُقدم عليه من سياسات وإجراءات تهدف منها إسرائيل إلى تدمير الجانب الفلسطينى نفسه بنفسه، وإنها ـ مهما فعل ـ ماضية فى برامج الإبادة التى أصبحت جزءًا من السلوك الإسرائيلى غير

المشروع والذى لايجوز حتى مراقبته على النحو الذى يشير إليه استخدام واشنطن للفيتو لمنع صدور قرار بتشكيل فريق للمراقبين، لأنه يناقض الخط الإسرائيلى والأمريكى القاضى بأن إسرائيل هى التى تقرر وتراقب ولا تقبل رقابة أحد حتى لوكان كل المراقبين من حلفائها الأمريكيين.

التحدى الثانى الذى تواجهه المقاومة الفلسطينية هو تلك الوصاية الغريبة التى يتطوع بها بعض المثقفين العرب ومنهم فلسطينيون. من مظاهر هذه الوصاية تبرع هؤلاء بتحديد مصير الانتفاضة ومنطقها، بل بلغ اجتهادهم وتنظيرهم حد المطالبة بوقفها إذا كان ذلك سيحقق نتائج سياسية إيجابية أو سيقي المقاومة ما هو أكثر خطرًا على أساس أن دفع الضرر والخطر مقدم - فى الشريعة - على جلب المنفعة وتحقيق المصلحة. ووصل هذا الاتجاه إلى حد القول بأن الانتفاضة هى التى أضرت بالقضية، وأنه ما دام الخط السياسى الفلسطينى واضحًا فلا بد من الإلحاح عليه بالوسائل السلمية أمام عدو بالغ الشراسة والتربص. وقد فات هؤلاء - مع احترامنا لدوافعهم النبيلة وحرصهم على سلامة الشعب الفلسطينى - أن الانتفاضة ليست قرارًا أو أداة أو ورقة تتحرك للتسخين ثم تتوقف عند الدرجة التى يريدها صانع القرار فقد سبق أن قلنا إن الانتفاضة قد تكون هى نفسها تعبيرًا عن اليأس من سلام السياسيين والمفاوضين مع علمنا أن الانتفاضة فى ذاتها ودون ترجمتها لن تحرر فلسطين، ولكن هذه الانتفاضة هى الرد التلقائى على الممارسات الإسرائيلية فى الأراضى الفلسطينية ولم يتوقف أحد لكى يسأل السؤال المحورى: ماذا تفعل إسرائيل فى الأراضى الفلسطينية، ولماذا تصر على التفاوض مع صاحب الحق لكى تنسحب وتنهي احتلالاً تم بالقوة المحظورة كما تنهي وضعًا يعتبر استمراره عدوانًا مستمراً وانتهاكًا دائمًا لقواعد القانون الدولي؟ ثم هل الانتفاضة فعل أم رد فعل، وهل لو انسحبت إسرائيل، أوأوقفت سياسات جيشها المحتل وبؤر الاستعمار الاستيطانى لمواطنيها الغزاة المغتصبين سوف تلاحقها الانتفاضة داخل الخط الأخضر؟ .

التحدى الثالث صدر هذه المرة من العالم العربى، ومن الخارج وتمثل فى ذلك اللغط الذى ثار أولاً حول مدى اتساق العمل الفدائى الاستشهادى مع صحيح الدين، وهل هو شهادة أم

انتحار؟ إنه من المحزن أن هذا اللغط قد استخدمه الإعلام الدولي الموالى لإسرائيل بشكل متكرر وبطريقة تدعو للاستفزاز خاصة أن اللغط قد بدأ بفتوى من شيخ الأزهر تم تحريفها فيما أرجو، مع أن القضية لا تحتاج إلى فتوى، وهى من البداهة بحيث يجب أن يلقى هؤلاء الشهداء فى الدنيا من تمجيد مثل ما يلقونه عند الله من تكريم ومكانة. فالشعب الذى لا يجد دفاعًا عن كرامته وعرضه وماله وأرضه أرخص من روحه فداء لوطنه ونقمة على عدوه، فأقدم أبناؤه على قتل أنفسهم وهم يأملون أن يقتلوا عدوهم بعد أن ضاقت بهم سبل المقاومة لعدو يمتلك كل شئ، لهو شعب جدير بكل الاحترام، ولعلها فيما أعلم أن تكون المرة الأولى فى تاريخ حركات التحرر أن توظف روح الفداء قربى إلى الله وثقة بوعده للمؤمنين لقوله سبحانه " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فيقتلون وعدًا عليه حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن " فجزاء الشهيد وعد حق على من خلق الشهيد وهداه إلى الشهادة لا يريد إلا وجهه بعد أن صدق الوعد وباع روحه لقاء هذا الوعد إلى من لا تضيع عنده الودائع ولا تخلف لديه الوعود. وهل يشك أحد فى أن القضية التى يستشهد الفلسطينيون من أجلها قضية تفصل بين الحق والباطل، وأن شهداءهم على الحق، وأنهم واثقون بنصر الله ونيل الشهادة أيهما أقرب، فى صراع تاريخى فريد لا يقوى على المجازفة به إلا من عمرت قلوبهم بثقة لا تضطرب بالله وبنصره المبين ؟.

ثم بسط شيخ الأزهر بعد ذلك قضية أخرى وهى مبدأ حصانة المدنيين الأبرياء من كل صور الأذى مهما كان الدافع إلى هذا الأذى أوالكسب المرجو من ورائه. وكما أشار الأستاذ فهمى هويدى فإن الإمام الأكبر وقف عند مستوى تقرير المبدأ العام، وهوحق، ولكن هذا القول أغرى الكثيرين ومنهم عرب وإسرائيليون طبعًا باستخدام هذه الفتوى - إن صح التعبير - للتسوية بين المدنى الفلسطينى والمدنى الإسرائيلى، مما يخفى وراءه إدانة الأعمال الاستشهادية ضد المدنى الإسرائيلى سواء بين المستوطنين فى الأراضى الفلسطينية، أوالمدنى الذى يقيم داخل إسرئيل. ولقد وجدت قطاعًا من العرب لا ينقصه الفهم والإدراك يدافعون عن هذه المقولة التى تغري فعلاً

بالتصديق ما دام الإنسان واحد فى كل مكان وحصانته مــن الضـرر واجبـة، وأن القـانون الـدولي يحمي الإنسان بشكل مطلق دون تمييز.

والحق أن دفـع هـذا الاعتقـاد الخطـير لا يكفـى لتحققه استهجانه أوحتـى اتـهام أنصـاره بالانقياد والتأثر بالإعلام الصهيونى، ولكنى أومن بأن الحجة المنطقيـة أبلـغ مـن مجـرد الرفـض وأبقى من الكلام المرسل. فالقضية ليست مجرد مقارنة بين مدنى هنا ومدنى هناك، ولكـن أصـل القضية وسياقها يجعل الفارق بين المدنى الفلسطينى والمدني الإسرائيلى بالقدر الذى يسمح بعـدم الوقوف عند مستوى تقرير المبدأ النبيل، فالمدنى الفلسطينى آمن فى بيته بعد أن اضطـر للتسـليم بضياع الجزء الآخر من وطنه، ولو مؤقتًا، الذى قامت عليـه إسـرائيل. ولكـن إسـرائيل احتلـت الأراضى التى تقيم بها منذ عام ١٩٦٧ واستمر احتلالها رغم كل المحـاولات السـلمية، وبعـد أن تكشف زيف كل العمليات الموهومة، وبدلاً من أن تحمى إسرائيل هذا المواطـن وتقـوم نحـوه بمـا تفرض عليه اتفاقية جنيـف الرابعـة، قـامت إسـرائيل بـنزع ملكيتـه لأرضـه وجلبـت آلافًـا مـن المستعمرين الإسرائيليين ليحلوا محل الفلسطينيين بالمخالفـة لأحكـام هـذه الاتفاقيـة، ثـم أعمـل جيشها ـ المفروض أن يحمى المدنى الفلسطينى ـ فى هذا المدنى قتـلاً وفـى منزلـه هدمًـا وتدمـيرًا وفى مصادر رزقه تحطيمًا وتجويعًا عامدًا إلى تبديد الأمل فى نفســه فـى غـد أفضـل وفـى سـلام وتعايش محتملين، ويشايع الجيش فلول المستعمرين الذين تربوا علـى ثقافـة الكراهيـة والغضـب والتسلط والاستعباد للمدنى الفلسطينى حتى داخـل مـا تبقـى مـن أراضيـه. وعندمـا قـرر المدنـى الفلسطينى أن يثور على هذا الظلم واستمراره وعلى حملــة إبادتـه، ازداد مـا يلاقيـه مـن إذلال وقمع وهوان. هذا هو المدنى الفسلطينى الذى يتعرض لكل صنوف الإبادة، ومـن حقـه أن يدافـع بكل السبل عن بقائه وحقه فى الحياة الكريمة رغم ضعف فرصه وتواضع إمكانياته.

أما المدنى الإسرئيلى الذى يستهدفه الاستشهادى الفلسطينى فـهو فئتـان لهمـا طـابع واحـد ويشتركان فى خصائص واحدة هما: المدنى الإسـرائيلى المستوطن وهـو أثـر مـن آثـار الاحتـلال ووجه من وجوهه، فضلاً عن أنه لا يتردد فى العدوان والإرهاب عَلَـى المدنـى الفلسـطينى الـذى

يسترقه ويقيم فى أرضه. كما أنه متضامن مع سلطات الاحتلال التى تدعم عدوانه وتشجع إغاراته البربرية على القرى والتجمعات المدنية الفلسطينية.

والصنف الثانى هو المدنى الإسرائيلى المقيم داخل إسرائيل وهو جزء من تركيب الدولة العنصرية العاملة على إفناء الشعب الفلسطينى، كما أنه فوض شارون تفويضًا مطلقًا فى مشروع إبادة الشعب الفلسطينى وتعريض المدنى الفلسطينى الآمن أيًا كان عمره ونوعه وموقعه للهجمات بالطائرات الحربية المتطورة والصواريخ والدبابات وتطهير المنازل والمدن بالرشاشات واغتيال القيادات والمقاومين. وكلما اجتهد شارون وأخلص فى إنفاذ مشروعه الإجرامى ارتفع نجمه وارتفعت شعبيته. وما دام شارون يعلن أن مشروع الإبادة هدفه تأمين هذا المدنى الإسرائيلى فقد أصبح التناقض واضحًا بين حق الفلسطينى صاحب الحق فى أن يقاوم العدوان على حياته ضد الجيش والاستيطان والمدنيين الإسرائيليين الذين أظهروا أنهم طبقة شاذة من البشر لا تستحق أية حماية قانونية ما دامت تساند برنامج الإبادة.

فهل يستوى المدنى الفلسطينى الآمن فى وطنه مع المدنى المستعمر أوالمدنى مواطن الدولة المعتدية؟، وهل يستوى قيام الفلسطينيين أفرادًا ردًا على بربرية إسرائيل بأعمال استشهادية مع قيام الدولة الإسرائيلية ذاتها بإبادة شاملة للسكان ومنازلهم وأطفالهم مع هذا المستوطن أوالمدنى الإسرائيلى المشارك فى المشروع الصهيونى العدوانى؟ وهل يعد دفاع الفلسطينى عن نفسه إرهابًا بينما برنامج الإبادة الَّذي تنفذه الدولة العبرية دفاع عن النفس؟ من الذى بدأ ومن الذى قام بالرد؟ وكيف يتردد الجانب العربى فى الدفاع عن حق الفلسطينى أيًا كانت طبيعته مدنيًا أوعسكريًا، إسلاميًا أوعلمانيًا فى الدفاع عن بقائه، وحرصه على التمييز بين المدنى البريء والعسكرى أوالمقاوم المسلح؟ إن التمييز بين المدنى والعسكرى وبين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية ممكن فى ظل وضع قانونى ومع دولة تعترف بالقانون ولكن الأمر مع إسرائيل مختلف تمامًا.

وكيف تعلن القمم العربية حق الشعب الفلسطينى فى المقاومة ثم تدين الحكومات العربية بما فيها السلطة الفلسطينية أعمال الاستشهاد بل وتعزية أهالى الضحايا وهى تعلم أن المدنى

الإسرائيلى هو رهان شارون الكبير، ويجب أن يكون رهان المقاومة أيضًا حتى يدرك أن أمن المواطن الإسرائيلى لا يتحقق على حساب أمن المواطن الفلسطينى. وكيف يؤكد الإعلام العربى يوميًا حق الشعب الفلسطينى فى المقاومة المشروعة ويطالب الشعوب العربية بمساندة الانتفاضة ثم تتم محاكمة من يجرؤ على تلبية نداء هذا الإعلام بتهمة مساندة الإنتفاضة؟

بَلْ ويتبرأ العالم العربي مِنْ أي مساندة عسكرية أوتسليمية، وكَأَنَّ هَذِهِ المساندة جرمًا مشهودًا؟، وأيْنَ يذهب المختطفون الفلسطينيون ؟، ومَنْ يطالب بدم مَنْ اغتالتهم إسرائيل ؟، إن العالم العربى بحاجة إلى إنصاف المقاومة ووضعها فى موقعها اللائق فى نضاله الممتد، فَهِيَ ليست مجرد مقاومة لجيش الاحتلال فِي فلسطين ولَكِنَّهَا رمز للرفض العربي للغطرسة الإسرائيلية والإنجاز المجحف مِنْ جانب واشنطن وسكوت أُورُبَّا عَلَى هَذِهِ الجرائم الصهيونية النكراء.

١٣ـ النضال الفلسطيني والإطار العربي

مِنْ أهم نتائج الانتفاضة الفلسطينية مِنْ ٢٠٠٠ الى ٢٠٠٢ أنْ الشعب الفلسطيني قَد أتيح لَهُ أنْ يتحدث بالنضال عَنْ نفسه وأنْ يسجل صفحة ناصعة فِي هَذَا النضال رغم ظروفه القاسية ، كَمَا كَانَ مِنْ نتائجها الْهَامَّة فقدان إسرائيل لِكُلٍّ مَا حققته فِي العالم العربي الَّذِي استكان بالفعل إلى سلام واهم دُونَ أنْ يجرؤ عَلَى البحث فِي مضمون هَذَا السلام بسبب الإرهاب الفكري الَّذِي ساد العالم العربي وتصنيف كُلّ مِنْ يقدم عَلَى هَذَا البحث عَلَى أنَّه مِنْ معسكر الرافضين للسلام والداقِّين لطبول الحرب ، وكَأَنَّ العلاقة مَعَ إسرائيل تدور فِي حلقة حديدية بَيْنَ الحرب العسكرية والسلام الموعود. فصحا العالم العربي عَلَى الحقيقة المرة وهِيَ أنْ إسرائيل الَّتِي قامت عَلَى الإرهاب والقهر والتزييف هِيَ نَفْسَهَا الَّتِي تعرض سلامًا واهمًا ظاهره الرحمة وباطنه العذاب .

واللافت للنظر أنْ الانتفاضة الَّتِي كَانَت تتوقع اندماجًا عربيًا أكبر مَعَهَا قَد بعثت برسالتين فِي سياق هَذَا التحليل : الرسالة الأولى أنْ الصراع مَعَ إسرائيل بَدَا لبعض الوقت وكأنه صراع فلسطيني إسرائيلي، وقَد كتبت فِي ذلك الوقت من صيف ٢٠٠١ عَمَّا بقي مِنْ الصراع العربي الإسرائيلي إشارة الى انكماش الصراع فِي دائرته الضيقة الأولى بَيْنَ الإسرائيليين والفلسطينيين، وفِي ذَلِك ما فِيهِ مِنْ خطر بالنظر الى الخلل الفادح فِي ميزان القوة بَيْنَ الطرفين ، وفِي ضوء طبيعة المشروع الصهيوني وأساليبه فِي تفتيت الجبهات حَتَّى يلتهمها جميعًا فِي الوقت المناسب.

أما الرسالة الثانية فَهِيَ ناجمة عَنْ رَدَّ الفعل الشعبي العارم الَّذِي أَكَّدَ أنْ الصراع مَعَ إسرائيل صراع مَعَ كُلّ العالم العربي بصرف النظر عَمَّا ترتبه إسرائيل مِنْ نتائج لصالحها عَلَى مِثْل هَذِهِ المقولات واستخدامها لتصوير موقفها عَلَى أَنَّهَا تعيش فِي بحر عربي معادٍ لَهَا ، ولَكِنَّ الحقيقة أنْ هَذَا العداء سببه واضح وهُو الغطرسة والغش والخداع والاستخفاف بحياة الأمم ومصائرها مِنْ

جانب إسرائيل وإصرارها عَلَى إلحاق الأذى والمهانة بعموم العالم العربي ، فلابُدَّ أنْ يبادلها العالم العربي صراحة عداء بعداء وضغينة بضغينة وأنْ يعيد العالم العربي الصراع إلى سنواته الأولى وكَأَنَّ إسرائيل ضيعت كُلّ هَذِهِ العقود بسياساتها العابثة ، وهِيَ شهادة أكيدة عَلَى عبث إسرائيل وفساد زعمها الّذِي ابتدعته وأوهمت بِهِ العالم طيلة هَذِهِ العقود بِأَنَّهَا دَوْلَة مسالمة تسعى إلى السلام وتستخدم القوة فقط للدفاع عَنْ سكانها الأبرياء .

هَكَذَا قَرّرَ الشارع العربي أنْ نضال الشعب الفلسطيني هُو إحدى ساحات النضال العربي ، فعاد الصراع بِكُلّ مظاهره صراعًا عربيًا إسرائيليًا بَعْدَ أنْ بدت مِنْ المظاهر مَا يُوحِي بِأَنَّهُ صراع فلسطيني إسرائيلي كَمَا ذكرنا .

والحديث عَنْ علاقة النضال الفلسطيني بالإطار العربي تتعدد جوانبه كَمَا تتنوع مراحله وساحاته ، مِثْلَمَا يستدعي الى الذاكرة أزماته المتعددة ، ولَكِنَّنَا نكتفي فِي هَذَا السياق بملاحظات عَامَّة حول تاريخ علاقة هَذَا النضال بالإطار العربي سعيًا الى تأكيد الأهميه القصوى لتعزيز هَذِهِ العلاقة ووضعها فِي أولوية متقدمة مِنْ أولويات الدبلوماسية العربية.

والملاحظة الأولى عَلَى تاريخ علاقة النضال الفلسطيني بالإطار العربي أنَّهُ مُنْذُ الهجمة الصهيونية الأولى بَعْدَ الحرب العالمية الأولى مباشرة فِي إطار صك الانتداب قاوم الفلسطينيون الغزاة المهاجرين ووصلت مقاومتهم ذروتها أعوام ١٩٣٦ – ١٩٣٩ وشعروا بمرارة كبيرة لأن أحدًا لَمْ يهب لنجدتهم بَلْ إنْ مِنْ تدخل فِي ثورتهم مِنْ الزعماء العرب وثق بعهود بريطانيا بوقف الهجرة ولكنها خذلتهم كَمَا خذلوا الثورة الفلسطينية. وعِنْدَ قيام إسرائيل شعر الفلسطينيون بأَنْ قيامها مجرد حدث عارض ستهب الجيوش العربية لقمعها وتعيد مِنْ فَرَّ مِنْهُم الى بيته بَعْدَ تأديب " العصابات الصهيونية ".

وبدأ الفلسطينيون نضالهم المسلح مِنْ الأراضي المجاورة لإسرائيل عام ١٩٦٥ ولكنهم فوجئوا عام ١٩٦٧ باحتلال إسرائيل لِكُلّ فلسطين بَلْ ولأراضي الدُّوَل المجاورة. وبَدَأَتْ مرحلة جديدة تَأَكَّدَ فيها أنْ عرب فلسطين جزء مِنْ إسرائيل وأنْ عليهم ألاّ ينتظروا التحرر مِنْ هَذَا الكيان

الَّذِي حَلَّ محل بلدهم وتلبسها بالكامل ، كَمَا شهد سكان الضفة والقطاع وهم تحت إدارة الأردن ومصر حكمًا مدنيًا إسرائيليًا وحيرة الانتماء إلىَ ثلاث : فلسطين المستقلة الَّتِي انحسر شبحها كثيرًا مُنْذُ غزو ١٩٦٧، مصر ، والأردن أوإسرائيل الَّتِي لَمْ تضيع وقتًا فِي العمل عَلَى ضم القدس وتهويدها وتكريس الاحتلال توطئة للضم. وهَكَذَا عوض العرب خيبة أمل الفلسطينيين بمساندة نضالهم المسلح مِنْ الأراضي المجاورة ، وهُو النضال الَّذِي شهد أزمات حادة بسبب الوجود العسكري الفلسطيني داخل الأردن ولبنان وصعوبة تحقيق التوازن بَيْنَ حرية العمل الفدائي وضبط السلوك الفلسطيني مِنْ ناحية، والمحافظة عَلَى سيادة الدَّوْلَة المضيفة مِنْ ناحية أُخْرَى. وكَانَ الشعار المدوي فِي تِلْكَ المرحلة ١٩٦٧ — ١٩٨٢ هُو التأكيد عَلَى حرية القرار الفلسطيني وتجنب انحراف الثورة الفلسطينية الى مزالق الخلافات العربية واستخدامها أداة فِي يد النظم العربية المتصارعة ، بِحَيْثُ يفلت مِنْهَا فِي هَذَا المناخ هدفها الأكبر وهُو مناهضة إسرائيل .

وعِنْدَمَا هبت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ ساندتها الدُّوَل العربية بالمال لعدم حاجتها الى السلاح لشعور هَذِهِ الدُّوَل بأَنْ التزامها فلسطينيًا فِي مواجهة إسرائيل يحتم عَلَيْهَا هَذِهِ المساندة فِي إطار تحول الصراع الفلسطيني والعربي مَعَ إسرائيل إلَى الساحة السياسية ، ثُمَّ حاولت هَذِهِ الدُّوَل مساعدة القيادة الفلسطينية فِي استثمار الإنتفاضة مِنْ الناحية السياسية سواء فِي محادثات واشنطن المتفرعة عَنْ مؤتمر مدريد أوفِي المحادثات الجانبية فِي أوسلو.

ويتضح مِنْ هَذَا التاريخ فِي علاقة النضال الفلسطيني بالإطار العربي أَنَّ العالم العربي حريص عَلَى اعتبار القضية الفلسطينية قضية عربية عَامَّة رغم محاولات إسرائيل والولايات المتحدة إحداث الوقيعة بَيْنَ المسارين الفلسطيني ، والسوري اللبناني وذَلِك بادعاء وجود منافسة بَيْنَ هَذَيْن المسارين وتصوير الموقف عَلَى أَنْ أحد المسارين يتقدم عَلَى حساب الآخر.

ويعلم العالم العربي أَنَّهُ ـ لسبب أو لآخر ـ ضيع فرصة تاريخية خلال انتفاضة الأقصى لشن حرب استنزاف ضِدَّ إسرائيل كَانَت كفيلة بإرغامها عَلَى طلب السلام العادل لِكُلِّ الأطراف ، بِحَيْثُ تساند الدُّوَل العربية الانتفاضة كَمَا وعدت بِكُلِّ صور المساندة عَلَى أساس أَنَّهَا مقاومة

وطنية مشروعة ضِدَّ احتلال غاشم فِي وجوده وممارساته، وهَذَا الخطأ الفادح تسبب فِي انفراد إسرائيل بالانتفاضة بقدراتها المحدودة، وانتَهَى الأمر باجتياح القوات الإسرائيلية للأراضي الفلسطينية فِي ٢٩ مارس ٢٠٠٢ بمساعدة أمريكية مطلقة وتحول أمريكي كامل إلَى الخطة الإسرائيلية لتصفية القضية الفلسطينية.

ومِنْ الواضح أنْ القضية الفلسطينية – كَمَا نَرَى – تمر بلحظة افتراق حاسمة بانعقاد مؤتمر واشنطن المعلن عَنْهُ بجدول أعمال لا يبشر بِأيّ خير. ولِذَلِكَ فَإنْ النضال الفلسطيني أصْبَحَ بحاجة مَاسَّة إلَى الإطار العربي **عَلَى صور متعددة :**

الصورة الأولى : أنْ تظل قلوب الشعوب تحيط الشعب الفلسطيني بالتضامن والدفء والأمل، عَنْ طريق مختلف القطاعات الَّتِي يجب تنظيمها بِحَيْثُ يَكُون تضامنها فَعَّالاً.

الصورة الثانية : الدفاع إعلاميًا عَنْ المواقف الفلسطينية ومناهضة حملات التشويه والخداع الَّتِي يشنها الإعلام الصهيوني فِي كُلّ مكان.

الصورة الثالثة : إنشاء دبلوماسية عربية موحدة عَلَى الأقل فِي القضية الفلسطينية فِي مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة.

الصورة الرابعة : المساعدة فِي تقديم المسئولين الإسرائيليين لمحاكمة دولِيَّة عادلة.

الصورة الخامسة : المساعدة فِي إعمار فلسطين.

١٤ـ رؤية الرئيس مبارك
ومستقبل الأوضاع فِي المنطقة

لا يماري أحد فِي أنَّ الوضع فِي فلسطين متدهور إلَى أقصى درجة وصل إلَيْهَا فِي تاريخه، وأنَّ إسرائيل تدفع الأمور إلَى نهاية لا يعلمها إلاَّ الله اعتمادًا عَلَى روح المغامرة وثقةً بقوتها ومتانة المساندة الأمريكية، ومَا دام حسابها لرد الفعل العربي مدروسًا فَهِيَ فِي مأمن مِنْ أية مفاجآت إقليمية مِنَ الجانب العربي، وأصْبَحَ همها الأوحد تركيع الشعب الفلسطيني بِكُلِّ السبل فِي بيئة إقليمية ودولِيَّة مناسبة ومواتية لَهَا بشكل قَد لا يتكرر فِي المستقبل القريب. فِي هَذَا المناخ تركت إسرائيل العالم كله تحت انطباع واضح وهُو أنَّهَا مصرة عَلَى انتصار إرادتها عَلَى إرادة البقاء للشعب الفلسطيني، وهِيَ تأمل أنْ تحقق سابقة فريدة فِي التاريخ مِثْلَمَا أنَّ إسرائيل نَفْسَهَا سابقة غَيْر قابلة للتكرار بِكُلِّ مواصفات الحركة الصهيونية وكُلّ عناصر البيئة الإقليمية والدولِيَّة المتغيرة. وقَد بات الأمر عَلَى هَذَا النحو مدعاةً لتفكير جدي فِي العالم العربي إزاء هَذَا التحدي الإسرائيلي .

فَقَد كَانَ مجرد قيام إسرائيل تحديًا فِي ذاته للامتداد الإقليمي العربي وإسفينًا فِي قلب الجسد العربي، ثُمَّ صار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية المجاورة هُو التحدي الجديد، وأخيرًا أصْبَحَ إصرار إسرائيل عَلَى اقتلاع الإرادة الفلسطينية لغة وخطابًا تتحدى بِهِ العالم أجمع، وتتحدى بِهِ الحقيقة المعروفة، وهِيَ أنَّ المغتصب ينكر عَلَى صاحب الحق حَتَّى البقاء عَلَى قيد الحياة تحت سيطرته وسطوته، وباتت سياسة إسرائيل الداعية إلَى تصفية قيادات هَذَا الشعب وإنكار قيادته التاريخية، وتحدي سلطته الوطنية المنتخبة والمدعومة باتفاق أوسلو وهِيَ أولى ثماره والتهديد بإسقاطها وطرد عرفات خطابًا لا يلقى الدهشة. ويعلم الجميع أنَّ إسرائيل هِيَ الَّتي ذهبت إلَى الفلسطينيين فِي عقر دارهم تُعْمِلُ فيهم القتل والاقتلاع والتدمير والاغتيال، وتُسَلِّطُ عليهم جحافل المستعمرين وهم فِي مأمنهم وقراهم بدعم وتشجيع وحماية جيش الاحتلال .

والحق أنَّ تصريحات الرئيس مبارك ورؤيته للموقف فِي المنطقة وشجاعته المعهودة فِي التمسك بالحق وإعلانه تستحق التحليل لَمَا لِهَذِهِ الرؤية مِنْ أبعاد استراتيجية فِي مسار الصراع العربي الإسرائيلي. فَقَد أدرك الرئيس مبارك بنظرته الثاقبة أنَّ شارون مُصِرٌّ عَلَى سياسة القوة الخرقاء وراقب هَذِهِ السياسة ومحاولاته توسيع دائرة الصراع بسبب سياسته الرعناء، فحذر الرئيس عدة مرات مِنْ مخاطر هَذِهِ السياسة وطالب بسياسة سلمية وبنظرة سياسية للأمور ولَمْ يتزحزح عَنْ ثوابت الموقف العربي مَعَ السماح لِكُلِّ جهد بِأَنْ يصل إلَى غايته. فأعلن مساندته لِكُلِّ جهد أُرُوبِّي أوأمريكي، وراقب خطة تينيت، وحاول إنجاحها وأبدى استعداد مصر لِكُلِّ جهد يرمي إلَى إنقاذ الشعب الفلسطيني والعودة إلَى المفاوضات، وطالب الرئيس بعناية أمريكية أكبر بالموقف ووقف السياسة الإسرائيلية الرعناء لَمَا تسببه مِنْ مخاطر للسلام والأمن للمنطقة، وإسرائيل والمصالح الأمريكية. كَمَا نذكر أنَّ مصر ساندت بكُلِّ قوة فكرة إرسال قوات دوليَّة لحماية الفلسطينيين، وهُو المسعى الَّذي أحبطته الولايات المتحدة، وتحاول إنجاح أي خيط للأمل فِي هَذَا الاتجاه .

ولا نغالي إذَا قلنا إنَّ إعلان الرئيس يوم ٢٠٠١/٧/١٩ م أنَّ شارون لا يصلح إلاَّ للحرب والقتل وأنَّهُ لا يصلح للسلام، يُعَدُّ تحولاً جذريًا فِي الموقف العربي، مِمَّا يطرح للتحليل دلالة هَذَا التحول وأثره عَلَى مستقبل التعامل العربي مَعَ إسرائيل، وأثره أيْضًا عَلَى المواقف الدوليَّة والمساعي المختلفة. وأمَّا أسباب هَذَا التحول فلا تحتاج إلَى بيان ؛ ذَلِك أنَّ سياسة شارون الَّتي لقيت إدانة هائلة فِي المنطقة تحولت مُنْذُ قمة عمان مِنْ مجرد خطة يُمْكِن تغييرها وفق تصور القمة، إلَى عقيدة لصيقة بشخص شارون، وتِلْكَ هِيَ القناعة الَّتي أوصلت الرئيس مبارك إلَى هَذَا الموقف الجديد. ولا شَكَّ أنَّ الموقف المصري المساند بثبات للحق الفلسطيني كَانَ يأمل فِي أنْ يؤدي الصمود الفلسطيني والامتعاض العربي إلَى تحول سياسي فِي الموقف الإسرائيلي، ولَكِن خطة تينيت الَّتي استهدفت فِي الأساس وقف العمليات الفدائية ضِدَّ إسرائيل ولَمْ تحدد مفهومًا منضبطًا لوقف إطلاق النار ولا لمواصفات فترة التهدئة، فضلاً عَنْ أن تكليف واشنطن لشارون بِأَنْ يَكُون الحكم والخصم فِي القضية قَد أقنع مصر بِأَنَّ تقرير ميتشيل وخطة تينيت لَيْسَتا مبادرتين

وأنَّ الأهم هُو مَدَى استعداد شارون للسلام حَقًّا. ولِذَلِكَ فَإنَّ الانتقال مِنَ اليأس مِنْ محاولات تعديل السياسة الإسرائيلية والضغط فِي هَذَا الاتجاه إلَى فقدان الأمل فِي شارون نفسه يعني أنَّهُ لا يُمْكِن التعامل مَعَهُ ولابُدَّ مِنَ البحث فِي إسرائيل عَنْ بديل يفهم متطلبات الأمن الإسرائيلي والسلام فِي المنطقة، وهُو بمثابة سحب اعتراف سياسي بِهَذِهِ الحكومة الَّتي عجزت عَنْ أنْ تسلك بإسرائيل سلوك الأمم المتحضرة، وأنَّ الصراع لا يجوز أنْ ينحدر فِي وسائله وروحه إلَى حَدِّ إبادة الطرف الآخر .

ويترتب عَلَى الموقف المصري الشجاع والرؤية الثابتة الثاقبة أنْ تلتئم قمة عربية عاجلة كَمَا طالبت فِي مقال بالحياة يوم ٢٠٠١/٧/٢٢ م حَتَّى تقرر تعديل استراتيجيتها الَّتي قررتها فِي عمان، حَيْثُ اعتمدت قرارات عمان عَلَى الافتراض بأنَّ العيب فِي سياسة شارون لا فِي شارون نفسه وأنَّ حكومة الوحدة الوطنية فِي إسرائيل ستجعل السياسة متوازنة وستدفع عناصر حزبية قوية إلَى لجم سياسة شارون أوالقفز مِنَ القارب قبل أنْ يجنح مَا دامت قواعد اللعبة السياسية الداخلية هِيَ هاجس أطراف التحالف القومي. ومن الشجاعة أنْ تعترف القمة الطارئة المرتقبة بأنَّهَا راهنت عَلَى شارون، ولَكِنَّهُ أفشل الرهانات الحميدة حسنة النية وأنَّهَا أمهلته ثلاثة أشهر ولَكِنَّهُ استغل السماحة العربية وتمادى فِي غيه، وآمل أنْ تتبنى القمة الطارئة بِهَذِهِ المناسبة خطًّا بالغ التشدد، وقَد تفيد مقترحاتي الواردة فِي مقال الحياة المُشَار إلَيْهِ فِي تغذية فكر القمة. ويُذْكَر أنني كنت آمل ذَلِك فِي قمة عمان، فعدم الاعتراف بشارون أقوى بكثير مِنْ وقف الاتصالات السياسية .

ولا شَكَّ أنَّ تحليل الرئيس مبارك لمجمل السلوك الإسرائيلي اليومي قَد أقنعه بِهَذِهِ النتيجة، ونأمل أنْ تَكُون النتيجة فكرًا عربيًّا رسميًّا موحدًا. ولا نَظُنّ أنَّ عدم الثقة بشارون المطلوب للعدالة والثأر فِي أماكن عدة هِيَ مجرد ضيق بسياساته، ولَكِنَّهَا رسالة إلَى شعب إسرائيل بمراجعة سياساته لِكَي يدرك أنَّ أمنه لا يتحقق إلاَّ فِي ظل الأمن لغيره وأنَّ السلام هُو المظلة الحقيقة لأمن الجميع وأنَّ نظرية الأمن مقابل الأمن هِيَ نتاج نظرة قاصرة تراهن عَلَى حاضر أبهرته مظاهر القوة وأعمته عَنِ الرؤية الاستراتيجية الصائبة .

ولَو كَانَ شارون رجل سلام حَقًّا لكان قَد لوح بالسلام بدلاً مِنْ برنامج المائة يوم لإبادة الفلسطينيين، ولكان لَدَيْهِ برنامج للسلام والتفاوض، وهُو أمر قررته الولايات المتحدة نَفْسَهَا، وأكَّدَتْهُ فرنسا وألمانيا خلال جولات الساسة الإسرائيليين فِي أُورُبَّا وسمعه شارون نفسه صراحة مِنْ محادثيه، كَمَا سمعه بيريز مرارًا مِنَ القاهرة وملخصه أنَّ القوة لا تحل مشكلة، وأنَّ حَقَّ الفلسطينيين فِي الحياة والأرض لا يقبل الإنكار والمزايدة، وأنَّ الثورة الفلسطينية هِيَ رد عَلَى مخادعة إسرائيل لعرفات، ولَيْسَ بسبب عجز عرفات عَنْ إخماد الثورة فَقَد نشأ نفسه ثوريًّا ونبضه مَعَ شعبه وقيادته هِيَ نَفْسَهَا رمز الصمود والثورة لاسترداد الحق .

ولتكن قمة عربية عاجلة وليكن تحليل الرئيس مبارك هُو أساس عمل القمة تستخلص مِنْهُ مَا يؤدي إلَيْهِ مِنْ نتائج وقرارات، ولتجتهد الجامعة العربية فِي تأكيد هَذَا الخط الشجاع، فَفِيهِ حياة لِكُلٍّ مِنَ العرب وإسرائيل .

ومِنَ الطبيعي أنْ تستنهض إسرائيل القوى المؤيدة لَهَا للضغط عَلَى مصر لتغيير موقفها لأنَّها تدرك جيدًا أنَّ موقف مصر خاصة فِي هَذِهِ الظروف الدقيقة يشكل أساسًا للتحرك العربي إزاء الوضع الراهن، كَمَا لا تتوانى إسرائيل فِي الدس واختلاق الأكاذيب الَّتِي رفضتها مصر وكشفت عَنْهَا أولاً بأول .

بَلْ إنَّ موقف مصر سيشكل أساسًا لدبلوماسية عربية نشطة فِي الساحات السياسية العالمية، وقَد يتطور الموقف العربي عَلَى هَذَا الأساس نحو مزيد مِنَ التصدي دبلوماسيًا لإسرائيل فِي الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة .

ولا نَظُنّ أنَّ إسرائيل تخاطر بحرب إقليمية واسعة، ولَكِن شارون يَبْدُو وكأنه يحاور بالقوة ويضع المنطقة عَلَى حافة الهاوية، وهُو وضع يقدم تغطية حمقاء لتصفياته للفلسطينيين، ويريد أنْ يرغم الأطراف المختلفة بِمَا فِيهَا الفلسطينيين عَلَى القبول بشروطه تحت حَدِّ السيف.

وبديهي أنَّ الدبلوماسية العربية النشطة والواضحة الساعية إلَى عزل إسرائيل قَد تدفع الشعب الإسرائيلي إلَى مواجهة قادمة ومحاسبتهم عَلَى مَا أنتجته سياسة القوة أخذًا فِي

الاعتبار الطبيعة الخاصة لِهَذَا الشعب وظروف نشأته وتطوره ونظرته لدور القوة فِي تجسيد المثالية الصهيونية .

والخلاصة : إننا الآن بحاجة إلَى قمة عربية عاجلة ورؤية عربية جديدة تبحث عَنْ رجل سلام لديه تصور سياسي للتسوية ويدرك أهمية الحوار بالنسبة للسلام والأمن فِي هَذِهِ المنطقة الحساسة الَّتي تفلت مِنْ كُلّ محاولات التحديد والضبط والتكهن، فَقَد فشل شارون وأحرق أوراقه واستنفد فرصته، ولابُدَّ أنْ تتجه الأنظار إلَى مرحلة مَا بَعْدَ شارون، وأنْ يَكُون سحب الثقة العربية بقدرته عَلَى التسوية مواكبًا لضغط العرب فِي الأمم المتحدة لتأكيد أنَّ إسرائيل لَمْ تَعُد دَوْلَة محبة للسلام، راغبة فِيهِ، وقادرة عَلَيْهِ، وبذَلِك فقدت شروط الدَّوْلَة العضو فِي الأمم المتحدة. ولابُدَّ أنْ يسعى العرب عَلَى الأقل كخطوة أولى مِنَ الآن إلَى طرح هَذِهِ القضية ؛ حَتَّى ترفض لجنة فحص أوراق اعتماد وفود الدُّوَل الأعضاء إلَى دورة الجمعية العامة الجديدة فِي سبتمبر القادم أوراق الوفد الإسرائيلي، مَا دامت صادرة عَنْ سلطة تمارس إرهاب الدَّوْلَة، وتسجل اسمها ضمن قائمة الأمم المتبربرة ؛ مِمَّا يزكي السعي إلَى اعتبار الصهيونية مِنْ جديد وبجدارة أهم أشكال العنصرية، الَّتي دخلت تاريخ الإنسانية بوصفها أبشع جرائم كُلّ القرون مُنْذُ عام ١٩٧٣ م .

١٥ـ العدوان الإسرائيلي عَلَى لبنان ومستقبل السلام فِي المنطقة

يَبْدُو أنَّ إسرائيل قَد قررت أنْ تحصل عَلَى السلام بالقوة دُونَ أنْ تعيد الأرض فِي لبنان وسوريا إلَى أصحابها، وذَلِك بشن عدوان غاشم عَلَى الجنوب اللبناني وعَلَى البنية الأساسية فِي بيروت وغيرها ،بحجة أنَّهَا تنتقم مِنَ العمليات" الإرهابية " الَّتي يقوم بهَا حزب الله ضِدَّ جنود الاحتلال، وضِدَّ عملاء إسرائيل فِي الشريط الحدودي الْمُحْتَل. فبدلاً مِنْ أنْ تلزم إسرائيل نَفْسَهَا بالمضي قدمًا في محادثات السلام فِي واشنطن مَعَ سوريا، ثُمَّ تلحق بهَا لبنان إذَا استبان الجد فِي المفاوضات، فضلت أنْ تجرب طريق العربدة لَعَلَّهَا تؤلب الحكومة اللبنانية عَلَى حزب الله، فتضمن مِنَ الحكومات اللبنانية حماية حدود إسرائيل مقابل أنْ تنسحب إسرائيل توقيًا لخسائرها اليومية فِي جنوب لبنان .

هَذَا المخطط الإسرائيلي الَّذي لا يزال مستمرًا حَتَّى كتابة هَذِهِ السطور سَوْفَ ينهزم أمام صلابة لبنان وتضامن مصر والعالم العربي مَعَه. ولَعَلَّ مضي عقود طويلة مِنْ قضية لبنان مَعَ إسرائيل يتطلب أنْ نعيد تطور موقف لبنان فِي الصراع العربي الإسرائيلي، ووجه الحق فيما يبديه لبنان مِنْ تكاتف وطني وصمود قومي .

بدأ لبنان بعيدًا عَنْ أولى حلقات الصراع العربي الإسرائيلي، ومَعَ ذَلِك وقع لبنان اتفاقية الهدنة مَعَ إسرائيل جنبًا إلَى جنب مَعَ مصر وسوريا والأردن فِي أعقاب هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٤٨ م، وقَد اتخذ قرار مجلس الجامعة فِي شتورة بلبنان بالتدخل العسكري ضِدَّ "العصابات الصهيونية "، ولَكِن فلسطين هِيَ ساحة هَذَا التدخل وتطوراته المأساوية .

وقَد سعد لبنان بالهدنة ردحًا مِنَ الزمن حَتَّى قررت القيادات الفلسطينية أنْ تبدأ الكفاح العسكري، فتشكلت منظمة التحرير الفلسطينية فِي لبنان، وبدأت أولى عملياتها مِنَ الأراضي اللبنانية، ولَمْ يتأثر لبنان عسكريًا بالمواجهة المصرية السورية الأردنية مَعَ إسرائيل عام ١٩٦٧م؛ لأنَّ لبنان لَمْ يدخل الحرب وإنَّمَا أدَّى تطور المقاومة الفلسطينية فِي لبنان والأردن لتعويض

هزيمة الجبهتين السورية والمصرية إلَى تزايد نفوذ المقاومة مِمَّا أسفر عَنْ صدامٍ دامٍ مَعَ الأردن فِي أيلول الأسود عام ١٩٧٠ م. أمَّا فِي لبنان، ولَهَا وضع مختلف فِي علاقتها بالفلسطينيين، فَقَد وقع اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ م لتنظيم العلاقة بَيْنَ الدَّوْلَة اللبنانية والمقاومة بِحَيْثُ يَكُون للدولة حرية تنظيم علاقاتها فِي الداخل والخارج، وأنْ يَكُون للمقاومة هامش مِنَ الحرية فِي لبنان وعَلَى حدودها مَعَ إسرائيل، ولَكِن هَذِهِ الصيغة لَمْ تصمد أمام تفاعلات العلاقات اللبنانية الفلسطينية مَعَ شرائح وأقسام المجتمع اللبناني وتركيز المقاومة بَعْدَ أيلول الأسود عَلَى الساحة اللبنانية .

وقَد دفع لبنان فِي هَذِهِ المرحلة ثمنًا باهظًا، حَيْثُ تعرضت مدنه وقراه لعدوان إسرائيل المتواصل لدفع العلاقة بَيْنَ لبنان والمقاومة إلَى نقطة المواجهة، وصار لبنان ساحة لتصفية زعماء المقاومة، كَمَا انقسم المجتمع وصارت القضية الفلسطينية إحدى القضايا الداخلية الحادة فِي لبنان، بَلْ صارت المقاومة إحدى أطراف الصراع الَّذي تحول إلَى حرب أهلية طاحنة استمرت حوالي ١٥ عامًا متصلة مِنْ ١٩٧٥ م حَتَّى ١٩٨٩ م، وهُو العام الَّذي رسمت فِيه اتفاقية الطائف صيغة لبنان الجديد العازم عَلَى جمع شتاته واستئناف مسيرته .

ثُمَّ كَانَ التطور الآخر خلال الحرب الأهلية عام ١٩٧٨ م، عِنْدَمَا أدركت إسرائيل أنَّ المواجهات المسلحة بَيْنَ الفلسطينيين والإسرائيليين فِي جنوب لبنان يجب أنْ تنتهي عَنْ طريق احتلال إسرائيل للجنوب بَعْدَ حملة عسكرية واسعة قررت إسرائيل بَعْدَهَا أنَّ تأمين حدودها مَعَ لبنان فِي الجنوب لَنْ يَتِمّ إلاَّ بإنشاء منطقة عازلة فِي الجنوب أطلقت عَلَيْهَا المنطقة الآمنة وجلبت إلَيْهَا عناصر مِنَ العملاء مِنَ الجيش اللبناني يقومون بدور المرتزقة للدفاع عَنْ إسرائيل ضِدَّ المقاومة الفلسطينية.

ورغم مَا كَانَ يعانيه لبنان بسبب العامل الفلسطيني داخليًا ومَعَ إسرائيل، فَقَد أكَّدَتْ كُلُّ المناسبات الحق فِي المقاومة مَا دامت إسرائيل تنكر الحقوق الفلسطينية، ولَكِن العبء القومي العربي كَانَ فوق مَا يستطيع لبنان تحمله، حَتَّى وقعت مواجهات أشد عنفًا بَيْنَ القوات الفلسطينية والإسرائيلية فِي يوليو١٩٨١ م، فكانت نذيرًا بتصاعد قوة المقاومة الفلسطينية، الأمر

الَّذي اضطر الولايات المتحدة إلَى أنْ ترسل السفير فيليب حبيب لعقد اتفاقية بمساندة المملكة العربية السعودية بَيْنَ الجانبين : الفلسطيني والإسرائيلي، ولَكِنْ إسرائيل كَانَت قَد قررت تصفية المقاومة والقضية الفلسطينية تَمَامًا، فأقدمت عَلَى غزو بيروت فِي يونيو١٩٨٢ م، ولَمْ تغادرها إلاَّ بَعْدَ ضمان ترحيل المقاومة خارج المنطقة واستقرار قيادتها فِي تونس وتحولت المقاومة مِنَ الشكل المسلح لفقدانها متطلباته الإقليمية والميدانية والعسكرية إلَى النضال السياسي، مَعَ وضع قيود كبيرة عَلَى حركة المقاومة فِي تونس وتصفية بعض أهم قياداتها كَمَا حدث عِنْدَمَا اغتالت الموساد أبا جهاد عام ١٩٨٥ م .

ومِنَ الواضح أنَّ احتلال إسرائيل لجنوب لبنان عام ١٩٧٨ م، ورحيل المقاومة الفلسطينية ١٩٨٢ م، قَد أدخل لبنان إلَى مرحلة جديدة تَمَامًا أصْبَحَ فِيهَا طرفًا خاصًا مباشرًا فِي الصراع العربي الإسرائيلي. فَقَد اتضح أنَّ احتلال إسرائيل لجنوب لبنان لَيْسَ هدفه التصدي للمقاومة الفلسطينية الَّتي كَانَت قَد رحلت بالفعل، وإنَّمَا هدف الاحتلال هُو نفس هدفه مَعَ مصر وسوريا والأردن وهُو مقايضة بعض الأرض بِكُلِّ السلام. وعِنْدَ هَذَا الحد بدأت إسرائيل تماطل فِي تنفيذ قرار مجلس الأمن فِي مارس ١٩٧٨ م، وهُو القرار رقم ٤٢٥ الَّذي يطالب إسرائيل بالانسحاب مِنَ الجنوب فورًا بلا شروط، وتحاول فرض السلام بشروطها ولَكِن تضامن سوريا مَعَهَا أخَّرَ المخطط الإسرائيلي الَّذي يهدف دَائِمًا إلى الفصل بَيْنَ لبنان وسوريا، ولَمَّا كَانَ حزب الله قَد تشكل خلال غزو إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢ م لمقاومة هَذَا الغزو، فَقَد تحولت المقاومة بَعْدَ رحيل إسرائيل مِنْ بيروت وبَعْدَ مذابحها الوحشية فِي صبرا وشاتيلا، إلَى الجهة الجنوبية، وهَكَذَا أصْبَحَت سوريا طرفًا فِي الصراع تسعى إلَى حَث إسرائيل أوإرغامها عَلَى الانسحاب، بَعْدَ أنْ كَانَت مجرد مسرح فِي الصراع .

ولَقَد عاش العالم العربي حالة مِنَ التبعية الثقافية والإعلامية فِي الثمانينيات خلال الحرب العراقية الإيرانية وتصدي الغرب والشرق للثورة الإسلامية فِي إيران، اقترنت بتشويه صورة إيران والإشارة الدائمة إلَى حزب الله عَلَى أنَّهُ تابع لإيران ؛ مِمَّا وضع الحزب وجهاده فِي جانب ولبنان كله فِي جانب آخر، وخلق الانطباع بِأَنَّ الحزب أداة للمتاعب والتبعية وعبء عَلَى لبنان.

ولَكِن مخططات إسرائيل بفرض السلام دُونَ مقابل إقليمي عَلَى سوريا ولبنان جعل حزب الله هُو الورقة الوحيدة الَّتي تؤرق إسرائيل وتقض مضجع قادتها، خاصة أنَّ الحزب يهاجم أهدافًا عسكرية إسرائيلية وعميلة وداخل الأراضي اللبنانية ويقوم بالرد عَلَى تجمعات إسرائيل السكانية كُلَّمَا قصفت إسرائيل تجمعات السكان فِي الجنوب. وهَكَذَا أثبت سلاح أودبلوماسية الكاتيوشا أمرًا واقعًا فِي خريطة الصراع الإسرائيلي السوري اللبناني. وإزاء الإحباط الَّذي يعانيه العالم العربي مِنْ جمود عملية السلام وعدم تحقيقها الحد الأدنى، واستباحة إسرائيل للقضاء اللبناني بأكمله دُونَ أنْ تخشى رادعًا، أصْبَحَ حزب الله هُو المنتقم مِنْ بطش إسرائيل. صحيح أنَّ المقاومة الَّتي أيدتها لبنان ومصر وكُلّ العالم العربي لَنْ ترغم إسرائيل عَلَى الرحيل دُونَ شرط ولَكِنَّهَا تجعل وجود إسرائيل فِي لبنان مكلفًا مِنَ الوجهة النفسية والبشرية ويجعل الانسحاب مِنْهُ أشبه بالإفلات مِنَ المحرقة. فَهَل ينجح المخطط الإسرائيلي أمْ المقاومة فِي تهيئة مسرح التفاوض للسلام الحقيقي؟، أمْ لصفقة تعكس ثقل القوة الإسرائيلية الَّتي راهنت عَلَيْهَا مُنْذُ قيامها ؟،لَقَد حقق حزب الله فِي مايو ٢٠٠١ المعادلة الجديدة بإرغامه القوات الإسرائيلية عَلَى الإنسحاب وأسقط كُلّ مقابل حاولت إسرائيل فرضه عَلَى لبنان، وهى المرة الأولى الَّتِي تنسحب فِيهَا إسرائيل دُونَ أن تحقق التطبيع مَعَ الدُّوَلة المحتلة، وهو الثمن الَّذِي أرادته إسرائيل مِن هَذَا الاحتلال .